

کتابخانه

الزهاوی

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٣٦

بقلم

انور الجندی

كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهاوي

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٢٦

بقلم
انور الجندی

تصدير

منذ ربع قرن خلف جليل صدقى الزهاوى دنيانا • وقد
جاوز السبعين فما ذكره خلال هذه التاريخ الطويل الذى أوشك
أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرا الا بضع محاضرات أقيمت
فى معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين فى مجلة هنا
أو هناك • وإذا كان الزهاوى قد لقي الاغضاء من الرجعيين
أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة ألوية الفكر الحسر
الناهض • وإذا كان أبناء عصره وجيله قد غصوا من قدره
فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد فى العالم العربى يؤمن
بتقدير الاحرار من رجال الفكر وحملة المشاعل فى طريق
التجديد والبعث • هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل
صدقى الزهاوى - بلا جمالة أو مبالغة - من أوائلهم وروادهم
فهو شاعر الحرية الذى احتمل فى سبيل دعوته عنقا شديدا
وهجوما عنيفا • وهجاء قاسيا • وإذا ذكر شعراء عصره فى
مجال التجديد والجرأة والاندفاع نحو أهداف الحرية
والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسبقه أو يلحقه أو يقف
فى صفه • • فقد كان شعراؤنا فى مصر وسوريا ولبنان والعراق
- فى الاغلب - مجاملين يسيرون فى ركب الامراء محافظين
متأدنين يقفون فى الوسط فى معترك التجديد والتقليد • •

ولا يمكن أن يكون شوقي أو حافظ أو مطران أو الكاظمي أو
الرصافي قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع في جراءة الزهاوي
ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الأصنام أو
الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة
الفاسدة أو طغيان الأمراء أو استبداد الملوك أو إجرام
المستعمرين .

ومع هذا فقد لقي جميل صدقي الزهاوي بعد موته نفس
الهوان الذي لقيه في حياته فلم يذكره إلا القليلون ولم يكتب
عنه بعض ما كتب عن شوقي أو الرصافي أو مطران .

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه في مطبوعات دور
النشر الكبرى فلم أجد عنه في أبواب الاعلام دراسة ولا في باب
الشعر ديوانا . . ولا في أبحاث الادب رسالة . . ولولا
فصول منشورة كتبت في الهلال والكتاب والرسالة وفي مؤلفات
الريحاني وروفايل بطي وشوقي ضيف ولويس شنجور
وأليس المقدسي والزيات . . لكان من العسير أن يجد المؤرخ
ما يفيء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذي كنا
نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها في الرسالة فنرى ذلك
الوهج القوي اللافح في جرأته وحرارته وإيمانه . . وهو في
ذلك الزمن لم يكن إلا في شيخوخته . . كان في السنوات
الآخيرة من عمره المديد . . وقد هدته الأمراض . . ومع ذلك
فقد كان حيا دافقا يملا النفس . . ويذكر بعظمة التنبي

والعري مختلطة ممتزجة .. الأول في كبريائه واعتداده والثاني
في شكوكة وتحرره ..

ولقد كان من الطبيعي أن يجيء اليوم الذي يشير الزهوى
ثورة جديدة في الشعر العربي والفكر العربي وأن بدت أهدافه
وعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت إلا أنه ما يزال رمزا على معنى
الجرأة والقوة والحياة الدافقة .. أنه سيقبل منارا في الفكر
العربي يهدي الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربي من
قبل وأن يكن مطران قد جدد المعوافي فإن الزهوى قد جدد
المهاني وأعطى الشعر معناه الحق في الكلمة الخالدة « ديوان
العرب »

عصر الزهاوى

عاش الزهاوى سبعين عاما من عصر العراق والامة العربية فى فترة من أخطر فترات هذا الشرق .. هى مرحلة التوثب والصراع والانتقال من استبداد تركيا العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطانى .. عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حتى الوجدان .. متأثرا بالاحداث .. مسجلا لها .. ولم يقف عند هذا شأن الشعراء .. ولكنه كان صادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يملى الحياء ولا النداء ولا الدعوة مهما أغضب الناس ومهما أغضبه الناس .. انه ذلك الداعى العنيد الذى يتلقف كل جديد من رأى فينقله شعرا ويدعو اليه العراق والعرب .

وقد شبب الزهاوى عن الطوق ابان الاحتلال البريطانى لمصر وهزيمة عرابى .. فى نفس الوقت الذى كان العراق يبرز تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسوءون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا . وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصى عليهم أنفاسهم .

وسرعان ما خاف الزهاوى مدائح السلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة استبداد عبد الحميد ،

وراح يمزقه وأبلا من شعره أنير دغيا إلى السحور .. ثم
 تصور التاريخ راحس الهندسور عجمي ونصر ربحا نريها
 الغناء وهما نرى الزهاوى نرى مناعة ركب فرحا مبهيجا ..
 تعباً للحرية ونحيا للعراق وسطوع التي فجر جديد في حياة الأمة
 العربية ثم لا تلبث الدعوة إلى قوميه العربية أن تعلن حتى يسد
 فيها ويهاجم أحمد جمال السراج الواسي الثوري غنى سورين بعد
 أن علق على المشافق الأبرار شهيداً من صفوة الرسل الأول
 للدعوة إلى انفصال العرب عن الترك ومقاومة الحملة المعرصة
 لتثريك العرب باسم «الجامعة الطورية» .

فاذا بدأ العراق يدخل نى عهد جديد بعد نوره داميه نرى
 الزهاوى يدعو إلى الدستور والبرلمان والسيورى وحريه
 الصحافة والاستقلال وتحرير المرأة .. وينضم موكب الدعوة
 إلى الإصلاح الاجتماعى ويشارك فيه مشاركة فعالة .

وهو فى هذه المرحلة الطويلة يهدر بالشعر قويا حيا ذاخرا
 بالانفاضة ، فيه صورة ذلك القلب الذى يتحرق إلى حرية
 قومه من أصر الاستبداد والامستعمار والخرافات والالوهام
 والجمود .

وهو طوال هذا الزمن يسافح عن دعوة الحرية والتجديد فى
 قوة .. ويكرر ما يقول أحيانا .. ويندفع فى حماسة بالغة ..
 وقد يكبو .. وقد يخطئ .. ولكنه لا يتوقف أبدا ولا يصمت
 أبدا .

وقد يكون شعره نظما .. وقد يكون أقل جودة من شعر
 عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا فى أنه يحمل مضمونه معنى

قوية .. وآراء جديدة .. وحركة دائبة .. وانه يدعو
 ولا يبالي الدعاء الى المحسنة .. ويصرخ ولا يبالي الصراخ
 هذا عن الجديد .. وينادي ولا يتوقف عن المنهج
 باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا . وقد
 عاشى هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشائما شاكيا
 سخطا مسرفا فى العيوس والتشاؤم .. غير متوقف عن
 الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه
 بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا
 فى مقدمة الركب . كل هذا كان يشعره بأن التطور بطيء وان
 التقدم وأن .. وان ما يتطلع اليه من أمل ما يزال بعيدا . أضف
 الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف
 فى قومه ولم يكرم فى وطنه .. ولم يأخذ مكانه الحق .. وان
 حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تنتاشه من
 هنا أو من هناك . ونسى انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله
 الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليسا ..
 ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا .
 وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه فى خوف وقلق
 واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل
 بيئته الا المعارضة والخصومة .. وقد كان يستطيع أن يدع
 هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا فى كل ركب ، عندئذ
 كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد
 اختار لنفسه الدهوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ..

واغلال القديم .. وفجود الجمود .. فلم يكن من المستوقع أبداً
أن يواجهه إلا بمثل ما ووجه به على أن الزهاوى يقر الآن في
فجره راضياً حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعاً إلى الفجر
الصادق .. فبدأت علامات الحرية الحقة ترسم في الأفق ..
والأوطان تخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ
حقها في العلم والسفور والعمل فتشارك في كبريات الأعمال
وتدخل البرلمان وإن علامات الجمود والتقليد والبسود في
محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة إلى
المنابع الصافية للعقيدة .

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعوته
التي امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاماً كان لها أثرها في
التطور .. ومكانها في تاريخ حركات البعث والتحرر .

مطلع الشمس - باب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شهر يونيو
(حزيران) عام ١٨٦٢ فى بغداد وكان والده محمد فيضى
الزهاوى مفتى العراف ٠٠ وأخوه فقيه من فقهاؤها ٠٠ ويرجع
نسبه الى أمراء السلطانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد
وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهاو» من
أعمال ايران فأقام فيها ٠ وتزوج منها بسيدة زهاوية ٠
أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجد غير

انها كانت عصبية المزاج ولا تدع لراى أحد (٢)
ومن هنا تنكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط
الفقه والدين وكان والده وأخوه يربذانه صاحب فقه وقضاء ٠
فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هذا المحيط
بشورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنسبة
للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبته فى التبريز عن
١ - زهاوى زاده جميلى صمدى افندى كما ورد اسمه فى
الكتب القديمة

٢ - من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش ٠ مباحق
السياسة الاسموعية ٧ يناير ١٩٣٢ .

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والآخرى .. ان أمه كانت
عصبية المزاج ولا تدعن لراى أحد . وقد ورث الزهاوى منها
هذا الطبع وعرف به .

يقول الزيات : كان أمه يريدونه صاحب قضاة ، وفقه ،
ولكن عناده دفعه أن يديم النسر فى الآداب .. ثم بدأ ينظم
النسر فكان صاحب دعوه ومسننه وان الاستعداد الموهوب فى
الطبع وهو منميته الخلق فى حصى . جعل من الزهاوى
أبا العلاء وقد كان أمه يريدونه أبا حنيفة .

ويرد بعض المؤرخين جراءة الزهاوى لى عرق النعم والخال
من الكردية .

وقد تعلم الزهاوى تعليما دينيا .. فقد ذهب لى الكتاب
فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوات بليدا لا يتعلم
ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعانى .

وكان كثير الحركة محبا للعب أكثر من اخوته وأترابه ..
متمردا لا يدعن لراى .. يقول الزهاوى فى رسالته (١) : كنت
فى صباى أدعى بالجنون لحركاتى غير المألوفة .. وفى شبابى
بالطائش لخفتى وايقالى فى النجو . وفى كهولتى بالجرىء
لمقاومتى للاستبداد . وفى شيخوختى بالزندق المجاهرتى
بارائى الحرة الفلسفية .

وقد تعلم كثيرا من علوم الاولين فلم يشبع عقله . واستطاع
أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين .
(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسية والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم لادعاء لاحد . . كانت من أول ملامح صبياء وقد طلعت عنده العواقل تتفاعل في نفسه طوال حياته .

ولعل أمرا آخر كان له أثره في تكوين طبيعة الزهاوى وشخصيته : يقول الزهاوى (١) كنت والسدى نعيش مع أولادها في بيت منعزل عن بيت والسدى فنزعتي والسدى من أحضانها دون اخوتي واخواني . . وأخذ على عاتقه تربيته تربية خاصة متبعا هواه . وكان من هواه الادب . . وكان شاعرا في الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما .

ولعل هذا الحادث له أثره في نفسية الزهاوى . . فن انتزاعه من أمه دون اخوته لابد أن ترك في نفسه احساسا بالانتماء والضيق أضيف الى عواقل نفسه فزادها ثورة وقلعا واضطرابا ثم ابتلى جميل في الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكي الذي لازمه بقية حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل في رجله .

ويقول أحمد محمد عيسى (٢) ان جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات . . ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وفتح ذهنه شيئا فشيئا . . وقرأ على بعض العلماء مبادئ الصرف والنحو والمنطق . . وقليلًا من البلاغة . . ولما

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

(٢) السياسة الاسبوعية - ٧ يناير ١٩٣٢

وأهم لا يسبعون جشعه .. ولا يروون غلته .. ولا يقلعون له
بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الألوهية وما شاكلها رجع
إلى أبيه غضبان أسفا .. قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : ويل لك يبنى أنت ومن على شـساكتك من
الشيخ الجامدين ..

وهذه هي أول معالم الثورة .. ولابد أن ذلك كان في سن
العشرين أى عام (١٨٨٣) وهذا التاريخ عندما بدأ حياة
الزهاوى الأدبية وعلامة الطريق الطويل الشاق الذى قطعه
محملا بوراثياته وعوامل بيئته .

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة إلى
التمرد . ويروى أنه استدعى ابنه إليه فى ليلة من ليالى
الشتاء الباردة .. كان قد أهدها عباة جميلة .. وقال :

— ألبس .. يا جميل عباةك فأنى أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

— يا أبى انى لأبس الغرفة فمن أين يتسرب البرد إلى .

وصمت والده ولم يزد على أن نظر إليه فرأى بريق الذكاء
الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأسه الكبير فى
زهو وثقة ..

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة .. كان يلعب
بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا فى الهواء . كما
أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الداما

وقد ألف فى هذه الألعاب رسائل نشرها فى المقتطف
والهلال .

ومن ناحية أخرى أكب على قراءة المتنبي وتفسير البيضاوى
وغيرها من المؤلفات الضخمة التى كانت تحفل بها مكتبة أبيه
وقال الزهاوى فى بعض كتاباته (١) طالعت فى شبابى
مؤلفات الدكتور فانديك المطبوعة فى بيروت وكتابى أصول
التشريع والفسيولوجيا لورتيبات . وبضعة مجلدات من المقتطف
كانت قد نشرت يومئذ فحصل لى بسبب هذه الكتب الاطلاع
على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت فى هذه العلوم فى
كهولتى بمطالعة كتب مترجمة الى التركية . وأكثر من قراءة
الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركية . . فحصلت على
شئ قليل من العلم بعادات المجتمع الغربى وأفكاره منها
البؤساء لهوجو فى مجلدين ضخمين . ولم استغن حتى اليوم
عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية .

(١) الكتب التى أفادتنى مجلة الهلال - ١٩٢٧

حياته

من الاعلام من تكون حياته خطأ واحدا مستقيما لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالأحداث صاعدة هابطة • دافعة مندفعة • هادئة لا تتوقف ولا تسكن • ومن هؤلاء جميل صدقي الزهاوى فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهى الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائما وفيها الصراع والارتطام والاختصاص لا يتوقف ولا يهدأ ولا ينين • والزهاوى منذ اليوم الاول حتى اليوم الاخير هو : الثائر المتمرّد الجريء الذى يعارك ويخلق ميادين المعركة ويواجه الناس بالجديد والغريب عما يغيظ ويشير • قلمه هو متنفس حياته • ونافذة روحه • •

ولقد ذهب الزهاوى شمالا وغربا وشرقا • • وعمل فى أكثر من عمل • وهو بطبيعته القلق لا يقر ولا يتوقف • وانما يتحرك ويتحرك دائما • • عينته الحكومة التركية فى أول شبابه عضوا فى مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لطبعة الولاية ومحررا للقسم العربى من الجريدة الرسمية « الزوراء » ثم عضوا فى محكمة الاستئناف ثم عين عضوا فى مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أستاذا للفلسفة فى المكتب الملكى بالاستانة ثم معوسا للاداب العربية فى دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشرعية في كلية الحقوق ثم نائبا في مجلس الشيوخ العراقي .

وفى خلال ذلك سافر الى مصر وسوريا وذهب الى اليمن بارداة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا في الجمعية الاصلاحية وبقي فيها تسعة أشهر .

وهاجر الى سوريا ومصر . وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحوى أغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر فى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدى بامضاء مستعارة .

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالأتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحكم القسائم اذ ذاك . ونظم عددا من القصائد نشرت فى المؤيد . وعاش تتعقبه الجواسيس . وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد .

يقول الزيات (١) : رأى فى الاستانة عبد الحميد يلقى الاحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر فأرسل اليه مع أبى الهدى قصيدة قال فيها :

أيأمر ظل الله في أرضه
 بما نهى الله عنه والرسول المبجل
 فيفقر ذا مال وينفى مبرأ
 ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
 تمهل قليلا لا تفظ أمة اذا
 تحرك فيها الفيض لا يتمهل
 وأيديك ان طالت فلا تغتر بها
 فان يد الايام منهن أطول
 فحبسه حيناً ثم نفاه . .

وسمع وهو عضو في مجلس المبعوثان عن بغداد مقرر
 الميزانية يذكر في وزارة الحربية مبلغا جسيما من المال جعلوه
 لقراءة البخارى في الاسطول فقال : انا أفهم ان يكون هذا
 المبلغ من وزارة الاوقاف . . أما الحربية فالمفهوم أن الاسطول
 يمشى بالبخار لا بالبخارى . فثار عليه المجلس وشغب عليه
 العامة .

ولا دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية
 فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروي الزهاوى في احدى رسائله الى أحمد محمد عيسى
 أخرج ساعات حياته يقول : ان أخرج ساعاتى هو يوم هاج
 الشعب العراقى على عام ١٩١٠ لمقالة شديدة نشرتها في
 « المؤيد » فى الدفاع عن المرأة حتى انى قبعت فى دارى أسبوعا
 ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لى . وعزلنى يومئذ
 والى بغداد ناظم باشا من وظيفتى فى مدرسة الحقوق ببغداد

وفد تزوج الزهاوى فى سن الثلاثين بالانسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لهما ولد وخدمته فى شيخوختى باخلاص وأمانة (١) .

وقد عاش الزهاوى (٢) بالرغم من الامراض والشلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحد وقاد الذهن قوى الذاكرة . وكان يحب المرح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .

ويصف الزيات الزهاوى . وقد عاش معه فى العراق أعوام ٢٠ و ٣١ و ١٩٢٢ وكان صديقه الوفى . « لم تكذ تلوح فى مخيلتى صورة الشماع التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع مقته وثقلت رجله ورعشت يده فهو لا يحمل بعضه بعضا الا بجهد والزهاوى ديدنه ان يتكلم كالتبديل خاصته ان يغرد . . فهو فى مجلس الصدقة منك أو منك . وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفدكه أو محدث » .

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكة الخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة الباردة أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وتهففة ساذجة . . ويده المرتعشة لا تنفك تعبت بسبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط سيمكارته المراقية .

(١) رساقل الزهاوى : الكتب المصرى . يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكرينى . مجلة الكتاب . يونيه ١٩٤٩

كما وصف مغره في (الصنابونية) وكيف كان يحدثه أنه
قضى الليل سهوا يقرأ .. وذاهلا نظم .. القصص والمجلات
منتشرة على سريريه وعلى مقعده .. المسودات عدسوسة تحت
مخداته أو في ثيابه ..

يقول للزيات : أنظر كيف اذيب عمري في شعوري .. والامة
تقدفني بالبهمان .. وانحكومة تخرجني من مجلس لاعيان ..
والملك يستكثر على أن أكون شاعر لبلاط ..

.. ثم لا يلعب أن يقول : سأذهب وستبقى شعوري دعبرة
عن شعوري ناطقة بالآلامى فهي دموع ذرفتها على الطرس وهى
خليقة أن تبعث من عيون قارئى دعة هى كل جزائى عن نظمها

شعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه . وان كانت محاولاته الاولى فى الشعر بدأت باكرة وساذجة . . يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن . ويقول فى رسائله الى محمد أحمد عبش (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما . . ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أسدا
الله ربك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجبلى . وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق . ويقول : وأتذكر أنه - أى والده - كان فى طفولتى يعدنى بدرهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا . وان لم يكن له معنى . وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جزل

والدى . أما جدي أنا فكان فى المستوى التى كنت نشر بها
بذلك الدرهم .

وقد تناول الزهاوى فى شعره السياسة والاجتماع والفن
والعلم والفلسفة .

أصدر عدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ . ديوان
الزهاوى : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوى : بيروت ١٩٣٣
اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشل : بغداد ١٩٣٤ ، الثمالة :
بغداد ١٩٣٩ ، ترجمة رباعيات الخيام من الفارسية بغداد ١٩٢٨
وله ديوان نزعات الشيطان مجموعه من القصائد لم تنشر
بعد فى المجلات والجرائد .

يقول الزهاوى : وسوف تنشر بعد موتى لانها لم تدم أراء
المتعصبين وتثيرهم على إثارة لا أحمد عقباها .

وقصيدة : ثورة فى الجحيم . . وعدد أبياتها ٤٣٣ بيتا
ونشرت فى مجلة الدهور فى العام الماضى . . وكانت تصدر فى
بيروت . يقول الزهاوى (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة .
وقد سبني بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة
الجمعة . ونفدت بعد قليل من الزمن نسخها .

يقول الزيات : نظم فى أعقاب عمره قصيدة « ثورة فى
الجحيم » فلما كلمه الملك فيصل بشأنها قال : عجزت عن
اضرام الثورة فى الارض فأضرمتها فى السماء .

وقال الزهاوى فى رسائله : أن أكثر شعري الذى نظمته

(١) رسائل الزهاوى ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصرى

قبل الدستور العثماني نشر في ديوانى الاول التكلم المنظوم (١)
 كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونشر أكثرها ابانها بامضاء
 رمزى فى أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » .
 وقد أوضح الزهاوى منهاجه الشعرى فى مقدمة ديوان
 الزهاوى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٢٤ : قال فى مقتطفات
 من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش فى نفسه
 بأوزان موسيقية فيهب به المسامع . . ولا أرى للشعر قواعد
 بل هو فوق القواعد . . ولا يتقيد بالسلاسل والأغلال . .
 وهو أشبه بالاحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء . . يتجدد
 بحسب الزمان ويرتقى من الأدنى الى الأعلى . . وأنزع أن
 أمشى بشعرى فى سبيل الحياه الطبيعىة متجنباً المبالغات
 وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التى ورثها الابناء عن
 الاباء فيقول ما يشعر به . . ولا يشعر به ابأوه .

ومازلت فى جو من الفكر طائرا

ومن عادتي أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من
 القصيدة . . عند الانتقال من فصل الى آخر . . كما فعلت

(١) طبع فى المطبعة الاعليه ببيروت وآخر قصائده مؤرخة

بغداد فى ٧ أغسطس ١٩٣٢هـ

فى عدة فصائد ، لا دفعها قبل السماع من سماع ثافية الواحدة
فى كل بيت . . بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها .
واجيز للشاعر أن يسطم على أى وزن شاء سواء كان من أوزان
الخليل أو من غيرها . والشاعر الحر شجاع لا يهاب فى الصديق
لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب .
ونزاع الى التجديد . ينور على النظام . ويتمرد على السلطان
الكاذب . . يريد كل يوم أن يمزق عن العادات . ويمزق
أطمارها البالية كالقراصة التى تخنع - ترتفعها ليمرر فى نوب
أجمل محبر بألوان السماء .

٢ - الجديد . . الجديد . . هو أحسن ما تنزع اليه النفس
الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .
سممت كل قديم عرفته فى حياتى

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربى شعراء الغرب فى
شعورهم . . فان لكل أمة شعورا خاصا بها لا تحس به أمة
أخرى .

لا أقول أن يحمده الشاعر العربى على ما هو عليه الشعر
اليوم . . بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمة فى سبيله
ولا يسوغ للشاعر العربى مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر
الفحل أن يولد فى اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يات بها
من جاء قبله .

٣ - وجدت الذين يمارسون الادب ثلاثة

الاكثر عددا من لا يستحسن من الشعر الا ما ألفه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصور الماضية ..
والشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم

♦ المتشرب مخه من الادب الغربى لا ينزع الى الشعر العربى
الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من
فسيحة قومه واندمج فى غيرهم .

♦ قليل يسير مع رقى العلم جنباً الى جنب . ويستحب
لشعر خلوا من المبالغت منطبقاً على الطبيعة مع المحافظة على
لشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر
لذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا
ان الجمهور منحطاً قد تعود القديم .. والمشاعر الذى يساير
معور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب
امدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه
شاعر الذى يتجدد مع جيله ١٠٠ هـ

وقوام رأى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد ..
نفع المشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير
الانتقال من الجمود الى الحياة .

وقد كان الزهاوى شاعراً له هدف ورسالة وغاية يحصل
عمدة البحث فى حدود قوله : تمزيق العادات البالية دون أن
نشم غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور
يكس الشعراء المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الشرع ،
ل: (٦١) غنمت لانداء وطش لاند اريد اية ساعظهم .. فلما

(٦١) مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

فتنحوا عيونهم شمعوني ، ثم عنيت وخذوا يسطرون ابي شذرا
ثم حنيت دبسوا بي ثم عموا وبقي فيهم من يسلم . وعينه
وساغني الى ان يسكنني الموت ، وسوف نبقي للمعاني معبره من
شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد ، فهي دموع
درستها يرعني على الطرس رصنه بلامى . . وهي حقيقه بان
تدرف من عيون فاريتها دمه هي دل جزائي من نصها .

ويرى الزهاوى ان شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه
على الحقائق الخالدة . . وهو في الغالب يسبق جيله . ولا اراه
مستفيدا من المستقبل الذي يجمع امله على اكباره لانه يكون
يومئذ تحت اطباق الثرى بينما لا يسمع هتاف الهاتفين له . .
والزهاوى في هذه العبارة يعنى نفسه . ويرى انه قد سبق
جيله وانه لم يلق الجزاء من اهل زمنه . ولم يستهدف لزهاوى
من شعره كسبا او نفاقا قال :

شعري ما أردت ان أكسب به مالا . . او اتزلف على احد .
فما رثيت الا من كان صديقي . ولا حمدت الا من طننت فيه
خييرا للبلاد . وربما خاب ظني في بعضهم فكففت .

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهاوى جرى مجرى
القدماء في المدح والرثاء والهجاء . وهو في هذا مجدد بالمعاني .
مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم .

ويعصور الزيات الزهاوى الشاعر في قوله : كان فكرة أقوى
من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة
النافذة . وليس له الاذن التي (تموسق) الموسيقى . . ولا
القرينة التي تصنع . . فاللفظ قد لا يختار . . والوزن قد

لا يتسنى والأسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية لجريته
تتج بين الابواب المتخاذلة عجيج الامواج المزبدة بين الشواطىء
المنهارة .. ويرى الزيات أن الزهاوى عقلية أفافة وميسرة
دفاقة وطبيعة ساخرة .. وهذا التوثب الحماسى هو الذى جعله
يؤثر النظم فى تقييد خواطره .. وهذه الحماسة قد نبت
أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها .. فيذهب الشاعر
ولا يبقى الفيلسوف .

ويقول الزهاوى فى بعض رسائله أن شاعريته بدأت وعمر
فى سن الخامسة عشرة .. ومن أوائل شعره :

أما آن أن نأبى على الوطن العارا

فتركب أخطارا ونقضى أوطارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن توماس هاردى ونشره فى

..

الهلal عام ١٩٢٩

وتعد قصيدة « ثورة فى الجحيم » من أهم شعر الزهاوى
فهى مؤلفة من ٤٣٣ بيتا فى قافية واحدة نشرها عام ١٩٢٩
فأحدثت ضجة وقد سماير فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا
واضحاً فى الفكرة والمشاهد . كما تأثر بدائى فى الكوميديا
الالهية . وأخذ من (هوجو) العبارات التى ساقها على ألسنة
الملاك الذى اتخذ رمز البومة .. وخلاصة ملحمته أن الشاعر
يصوت ويودع فى القبر فيظهر منكر ونكير ، كما الحساب ..
فيجرب بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحياة والدين
والإيمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية . وقد عرض
لهذا كله فى سخرية وتهكم شديدين .

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وان لم يكن زعيما :
اننى منذ كنت أشدو بشعرى
كان يوحى الى بالتجديد
أنا لا أدعى الزعامة فيه
غير أنى أثبت فيه وجـودى
حبذا الليل والنهار بعينى
اننى مغمـرم بكل جديد
وجديد القريض قرب معانيه
وبعد له عن التعقيد
ولقد أحب الزهاوى وقال شعرا عاطفيا رائعا :
نظرت اليها وهى بيضاء تبهج
تجد به ماء الصدا يتوهج
مشيت ومشى قلبى المشيم خلفها
يقبـل آثار الخطى حيث تنهج
لها وهى أدرى العالمين بحالتى
هوى فى فؤادى ناره تشـاج
أريد اذا قابلتها لا ينها
غرامي بها لكننى أتلاجـاج
تمنيت ياسلمى وهل يتفـع المنى
لو أن حياتى فى حبـاتك تـمزج

الزهاوى المجدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدد وانه جدد فى
أربعة أمور :

♦ مكافحة العادات والتقاليد البالية والدعوة الى التحرر
والتجديد والاصلاح الاجتماعى .

♦ مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها
♦ ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة
فى الشعر .

♦ التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلمية
ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة .. فى الفكر والسياسة
والاجتماع .. وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين .
ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيه
ومحاربته فى رزقه .

قال فى السلطان عبد الحميد الثانى وقد نفي بسببها من
الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عيشت بالشعب أطماع ضالم
 يجعله من جورده ما يحمسين
 فيا ويح قوم فوضوا أئبر أنفسهم
 الى ملك عن فعله ليس يسأل
 الى ذى اختيار فى الحكومة مطلق
 اذا شاء لم يفعل وان شاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا فى الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم
 السلطان هذه المقاومة أو عارض الحاكم الظالم على هذا النحو
 وقد كان الزهاوى حفيّا بنظريات الكون والوجود والجاذبية
 والنسبية والتطور والفلك والكهرباء • وضرب فيها بسهم وافر
 من منظومه ومنشوره •

وقد درس الزهاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن
 فى الجاذبية والنسبية وضمن شعره هذه الآراء •
 وهو أول شعراء العرب الذين عنوا بهذه الموضوعات • بل هو
 أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت
 فى أبياته كلمات لاثير والالكثرون والبروتون والكهرباء •
 وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما •

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقرأ حكمة أو نظرية أو رأى
 مستحدث حتى يعمد الى قلعه فيدخله فى شعره • وقالوا
 أيضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره •
 وانما كان ترديدا لما كان يقال فى صحف مصر من أحاديث
 سيلاية موسى وطه حسين وهيكلى وغيرهم من المجددين •

ويعصف الزيات تهالك الزهاوى على التجديد على أنه خوف
عاصف من الاتهام بالجمود . كان الزهاوى كشوقى (١) حريصاً
على متابعة العصر ومسيرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما
طبع مرن يطلب التجدد . . وحس مرهف يأنف التخلف . .
ويزيد الزهاوى أن الفجر يزهاه وأن التيه يذهب به . . فيحب
الثناء ويبغض النقد . وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب
الى التجديد . ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى الى التطرف
ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى عيول الخاصة . . ويعارض
هوى العامة . . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد
بمهاجمة أهل الحكم . . وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين
وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الامة .

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوى قد جدد الشعر بادخال
عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هي المادة
الاصيلة فى شعره .

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعوة الى
الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية فى الفترة التى
أمضاها فى الاسيرة . . حيث عاش فى جو تركيخ الفتنة
والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا فى سبيله . . ولما
تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر
ومصر ولبنان .

(١) مجلد الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكرينى : الكتاب يونيه ١٩٤٩

ولقد كان الزهاوي (١) يحب سموره ويعبر به زياره رفيقه
وخليله ويرى فيه عزاءه عند الملل والمسلية عندما تعتوره
الهموم .

يا شعر انك أنت صوت صميرى
بيديك حزنى درد و سرورى
يا شعر أنت بكائى يوم كآبتى
وتبسمى يا شعر يوم حبه وورى
أنا أنت يا شعرى وأنت أنا فمن
يفراك يقرأ سيرنى وشـعـورى

ولقد ظل الزهاوي يكرر آرائه في كل شعره ، ويصر على
رأى قاله بالرغم من خصومة الناس له . . وهو في هذا يجيد
اجادة ممتازة في بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو
مبلا وضعيفا في أحيان أخرى .

وقد كره اللغة التقليدية والمحسسات البدعيه والنظمية . .
ولم يقف شأن الشعراء المعصرين له عند المعاني العامة بل خاض
معركة السياسة والحياة والمجتمع في قوة
هذا وقد سببت نزعة الزهاوي التجديديه له كثيرا من
المتاعب والخصومات ولم يحتمل أهل وطنه جرأة آرائه

(١) محاضرات ناصر الحناني عن الزهاوي .

واندفاعه فردوا له الصاع صاعين

يا نفس قد سبوك حين نصحتهم

هذا جزاء الناصحين فذوقى

قالوا اطردوا الزنديق من أوطانكم

ماذا يخاف القوم من زنديق

قلوا اقتسلوه فانما هو مارق

ماذا يضر المؤمنين مروق

أنا لست زنديقا ولا أنا مارق

حتى يحل لطفركم تمزيقي

والزهاوى الشاعر المجدد له فى الحب شعر عميق المبني

جديد فى العرض تتمثل فيه طبيعته الحريصة على أن يفول

ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب فى القلوب شرارة

تختفى تارة وتظهر تارة

ثم يرقى حتى يكون سراجا

لذويه فيه هدى وانارة

ثم يرقى حتى يكون مع الايسا

م نارا حمراء ذات حرارة

ثم يرقى حتى يكون أتونا

بحراراته تذوب الحجارة

ثم يرقى حتى يكون حريقا

فيه هلك لاهله وخسارة

ثم يرقى حتى يمثل بركانا
 يرى الناس من بعيد ناره
 ثم يرقى حتى يكون جحيما
 عن تفصيلها تضيق العبارة
 ومن آيات تحديده انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات
 وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول في قصيدته « سياحة
 العقل » .

لا تقبل الاجرام عدا
 كلا ولا الابعاد جدا
 العقل يرجع خائبا
 فيها وان لم يال جهدا
 مسترشدا بعملوه
 فيها اذا ما ضل يهدي
 والعقل يعلم من سياحته التي اولته مجدا
 ان المجسرة لم تكن الا
 عوالم ففن عدا
 والسحب فيها أنجم
 من الشمسوس بعدن جدا
 متحركات في السماء
 تغال ان لهن قصدا
 متجاذبات لو تخلف
 واحد عنها لاودى

وهو يعاود الحديث عن شعره في عديد من قصائده ويطالبك
بالانصاف

ما الشعر الاشعوري جئت أعرضه

فأنقده نقدا شريفا غير ذي خلق

الشعر ما عاش دهره بعد قائله

وسار يجرى على الافسواه كالمثل

والشعر ما اهتز منه روح سامعه

كمن تكهرب من سلك على غفل

وخلاصة رأيه في الشعر الجديد أن يتحرر بجميع أغراضه

من أسر التقاليد الجسامدة . . . وان الاوزان بالنظريات التي

وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشمل

القوالب والمضمون .

الزهاوى النادر

أريد في هذا الفصل أن أعرض للزهاوى المكتوب . . فقد خلف عددا من الأبحاث والدراسات النسوبة مما يدعوننا أن نحلل معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رسالة الكائنات (١) في الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر في المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية ورسالة في سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه في وكس الخيل . ورسالة في الخط الجديد (٣) وقال عنها: هذا الخط لا يشبه الخط العربي ولا الحروف اللاتينية ويقدر أن يتعلمه التلميذ في أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . ويطلع مقطعا . . وفيه تسهيل للطباعة . . فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفا آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما في ذلك من الاقتصاد . ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطا عاما لجميع اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التي كان ألقاها على تلاميذه في

١ - طبعها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦

٢ - طبعها الهلال

٣ - نشرها المقتطف

٤ - القاهرة ١٨٩٤

جامعه الاستانة ورسالة الفجر الصادق في الرد على الوهابية
وقد طبع في مصر قبل الدستور العثماني ورسالة الجاذبية (١)
وتعليقها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منها
٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع)
وكتاب تسهيل قواعد اللغة العربية ورسالة الجاذبية وتعليقها (٢)
وكتاب المجمل مما أرى (٣) .

وليس شك ان كل هذا المحصول الثرى الضخم يعطى
للزهاوى صفة الكاتب . وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر
التي غلبت على حياته وفنه . ولعله مما يلاحظ أنه كان فى
شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو أغلبها طبعت فى
الفترة الاولى من حياته وقبل أن يتفرغ للشمع تفرغ نهائيا .
يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القادر
العمري والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا
حواله فى الفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما .

ويقول الزيات أن الزهاوى كان فى شبابه ينظر فى العلوم
الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقالات
والكتب . . ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركية
والكردية . . وانه ألف كتاب الكائنات فى الفلسفة . وكتاب

١ - طبعت ببغداد

٢ - بغداد ١٩١٠

٣ - مصر ١٩٢٤

٤ - رسائل الزهاوى - مجلة الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦

الجاذبية وتعليلها في الطبيعة وخالف به اقطاب العلم . ومن ذلك قوله : أين علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة وإنما هي دفعها لها بسبب ما تسعه من الالكترونات .

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التي تناولها الزهاوى في كتبه في مقال له نشر في كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) اننى أوقر هذا الباحث الفاضل . وأعرف مستقلال فكره واستقامة منطقته وجراته في جهاده . وغبنه بين قومه فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ماله عندى من القدر والرعاية .

أول كتاب قرأت للزهاوى كان كذب الكائنات أو رسالة الكائنات لأنها عجلة مختصرة من لقطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (أى عام ١٩٠٧) وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة . ومباحث الدين والفلسفة . فراقنى من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ . ووضوح التفكير . والجرأة على العقائد الموروثة .

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء بأشعار ابن سينا ويزيد عليهما بالجلال والترتيب . ثم قرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اضطلاح واستقلال ونزعة الى الثقة والابتسكار . وكان آخر ما قرأت له رسالة المجلد مما أرى ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين .

١ - ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها .

.. واذا فرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل .. ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا .. وتلنفت الى البدئية فاذا هى محدودة فى أعماقها وأعلىها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار .. فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان . لا تتناجى فيها الاحلام وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا . ولكنها كذلك ليل وغيبوب لا تجدى فيها الكهرباء .

وهكذا يعارض العقاد آراء الزهاوى فى العلم . وهو ما كان موضع النقد عند كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبوا عنه . يقول سليم طه التكرينى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها .. ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية عن طراز رفيع .. وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجتريها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البدئية والشعر . فمن ينشده فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه .. واقبال عليه فى هذا المجال .

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة .. وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

بهضة الأتراك .. فقال : ان الرماد الذى تراكم فى مكان الحريق الهائل لم يخل من جمرة اذا نفخ فيها المافخ تأججت من جديد فكانت قوة كبيرة تستطيع عمل شئ، جلد .. وهكذا كان الامر فان الغازى مصطفى كمال نفخ فى درع الامة التركية من روحه .. تلك الروح الكبيرة .. وهو بمعزل عما كانت تكيده له الخلافة فى دارها حتى احيها ورأب صدعها وسترده بما جنده من فلل الجيش المدحور .. وهو لا يملك يومئذ لا عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الفوز باهرا .. ويعطى هذا النموذج رقابة ذهن الزهاوى وجمال أسلوبه النثرى .

ويمزى اتجاه الزهاوى الى الفلسفة والى ادماجها فى شعره ونثره انه كان مدرسا للفلسفة الاسلامية فى الاستانة .. هذا فضلا عن انه بطبيعته فينسوف فيه حب للجدل والمناقشة .. وفى أسلوبه ذكر الاسباب والنتائج .. ولقد كانت لغته دائما اقرب الى لغة العلم .. وقد أحب مجسلة المفتطف لموضوعاتها العلمية .. ومؤلفات فاندريك فى الفلك وكتب الدكتور ورثبات عن الفسيولوجيا والتشريح .. كما أنه قرأ مترجمة الى التركية البوساء لفكتسور هيجو .. كما قرأ أناطول فرانس وشكسبير وجوته وتولستوى .. وكان معجبا بشاعر الأتراك الكبير ناصق كمال .

ومما يتصل بعمل الزهاوى الناصر أنه عين فى عهد الاحتلال رئيسا للجنة تعريب القوانين التركية فصر ١٧ قانونا بين صغير وكبير .

الزهاوى والمرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوى وشعره اشتراكه فى قضية المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وسفورها . . وهو أول شاعر عربى يعطى هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة . ولم يسبق فى ذلك الا بقاسم أمين . ولقد بدا الزهاوى دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحصل فى سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمطين . فقد كان لدفاع (١) الزهاوى عن المرأة فى المجتمع العراقى وفما أشد من وقع كتابات قاسم أمين فى مصر وأبعد منه أثرا . . فقد أنفق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالى حملته بايمان وحرارة . وقد طالب الزهاوى بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل فى بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام . وقد نقد الحياة الزوجية فى البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التى يجرى الزواج بموجبها وآمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين . . ومن جملة شعر الزهاوى يظهر انه عالج خمس قضايا للمرأة . . السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعوة

الى تعليمها ومشاركتها في الحياة العامة ومساواتها بالرجل
يقول :

انما المرأة والمرأ سواء في الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان اثاث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور
ليس ترقى الانساء في امة ما
لم تكن قد ترقى الامهات
آخر المسلمين عن أمم الارض
حجب تشقى به المسلمات
لابقى عفة الفتاة حجاب
بل يفىها تثقيفها والعلوم
مذبوا ارواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسموم
اسفري فالحجاب يا ابنة فهد
هو داء في الاجتماع وخيم
انزعيه ومزقيه فقد انكره العصر ناهضاً والحلوم
اسفري فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقاً اباً
ثارت فمزقت الحجاب اباً

عسوية عرفت أخيرا
 كيف تنبسط ما أرابا
 كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
 وسيطلب التاريخ من ناس
 لها ظلموا حسابا
 سألت لها حرية منهم
 فما لقيت جوابا
 وليس من الدين الحجاب وانما
 وجعنا الى أحكامه نتفهم
 فان كان نص فائل بوجوبه
 ولا نص فيه حسبا أنا أعلم
 نأوله حتى نوفق بينه
 وبين طريق العلم فهو المقدم
 ليس ترقى الأبناء في أمة ما
 لم تكن قد ترقى الامهات
 أخر المسلمين عن أمم الارض
 حجاب تشقى به المسلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفة
 من حياته .

ويسجل الزهاوى فى بعض رسائله أثر قضائية المرأة فى
 فيقول : وعزلت عن وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفعى

عن حقوق المرأة . . . وبنى ادى لدى نظمت فصيدة امرأة الجندى
يوم لم يكن فى بغداد شاعر يتصرف الشعر فى اصلاح
المجتمع .

ويقول الزهاوى فى موضع آخر من رسائله مصورا اثر
لمعنه فى المرأة فى ولاية نظم كانت جسريدة المؤبد فى مصر
قد نشرت لى مقالة أذاع فيها عن حقوق المرأة فذاعت حول هذه
المقالة ضجة كبيرة وأخذ التعصبون يرغون ويزبدون يذموننى
بالسب واللعن . وكان التعصب فى بغداد يومئذ ذا صولة
فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى ارضاء للرأى العام .

كما ادى قيام القيامة ضد الزهاوى عليه الى لزوم دارة
خوفا من القتل بعد أن تحرش به دماء الشعب .

ولقد كان لدعوة الزهاوى أثرها فقد لقيت صدى ايجابيا
بالرغم من حملة خصومة عليه من أجلها . . . وفتحت الباب أمام
تعليم الفتاة فى العراق .

فنون شعره

أصدر الزهاوى ديوانه عام ١٩١٤ (طبعه خير الدين الزركلي
بالمهرة) وقد ضم شعره من عام ١٢٠٧ - ١٢٤١ هجرية
(١٨٨٨-١٩٢٤) في خلال مسسته وتلاتين عاماً وقد كتب على
صدره هذه البيت

إذا الشعر لم يهرزك عند سماعه

فليس خليفاً أن يقال له شاعر

وقد ضم الديوان خمسة عشر باباً تعطى صورة التجديد
وحسن التنسيق عند الزهاوى .

- ♦ المشهقات : فى الغرام
- ♦ هواجس النفس : فى مطالب فاضحة
- ♦ الحديث شجون : فى القصص
- ♦ الدم والنار : فى الحروب
- ♦ المشاهد : فى الوصف
- ♦ الاسموع الناطقة : فى المراثى
- ♦ أبنيذ المجروح : فى البث والشكاه
- ♦ القارعات : فى البحث على التقدم
- ♦ الشعر والشعراء : فى القرى والشاعر
- ♦ الليل والنهار : فى الاجتماع

- وهي الضمير : في الوطن
- المرأة : في النساء
- قاق الصباح : في الترحيب
- بقايا الشفق : في مطالب نسى
- الخطرات : متفرقة

وتعطى هذه الابواب صورة شعر الزهاوى كله بعد اصدار هذا الديوان وهو في سن الستين . وقد استطاع ان يضرب في جميع مجالات الشعر وفنونه وآرائه محبا ومصلحا جنديا رئيسيا وراثيا ووطنيا .

وقد ظل الزهاوى في شعره نابض لحرارة حتى يدبغ سن السبعين . . وشارك في معاربه الظلم والاستبداد والرغبة في رقي الشرق ومقاومة الخرافات التي دخت الى الاسلام ومقاومة الخرافات التي دخلت الى الاسلام ومقاومة الحجاب وسسلطان رجال الدين وان كان كل ما قاله لم يكن جديدا . . الا انه سبق زمنه بمائة عام . ونقدم الشعراء جميعا في هذا المجال . وفي الزهاوى روح من دعوات جمال الدين الافغانى ومحمد عبده للاصلاح السياسى والدينى وفيه من الكواكب حملته على الاستبداد .

والزهاوى يرى كل قصيدة هي القصيدة الاولى والاخيرة فلا يبالي أن يكرر فيها ما قال في قصائده أخرى ويقول في مقدمة ديوانه : ربما عرف المطالع شعري حاله بلادى السياسية ودرجتها من الرقي في السنين التي عشت

فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من اسرجم الطويلة
واعذب شعر الزهاوى دسوة اسي البحرية والسعيدة وبوردة
دائمه على الجمود والتفانيد والبيود الفرية والاجتماعية فقد
كان يؤمن بأن الشرق لا يتم له التقدم الا اذا تحرر من عبثه
القيود التي غلت تفكير ابنائه

وبيتاه هذين يرمزان اسي مذهبه واتجاهه

سئمت لل قديم عرفتة في حياتي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوى في ديوانه هذا مع
ديوانه الاول الذي أصدره عام ١٩٠٧ أي قبله بأكثر من خمسة
عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا . فقد كان ديوانه
الاول مجموعة من القصائد التي قالها أيام الاستبداد ونشرها
في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن .
وكان الزهاوى راضيا عن الاتراك والسلطان في أول الامر
ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواهم فأصبح موضع
رقابة شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا .

ولما راتب الغدر في القوم شيمه

وان مجال الظلم فيها يوسع

وان كلام الحق ينبد جانب

وان أراجيف النوشية تسع

خشيت على نفسي فأزمنت رجعه

الى بلدي من قبيل اني أضرع

وهل راحه فى بلدة نصف اهلهما
 على نصفه الثانى عيسون تطلع
 تراقب افعالى وكل عشمسية
 الى «يلدزه» عنى التفسارير ترفع
 ويقول الزهاوى فى المقارنة بين الشرق والغرب :
 الشرق ما زال يحبو وهو مفتض
 والغرب يركض ولها وهو بفغان
 والغرب ابيهؤه بالعلم قد سعدوا
 والشرق اعملوه فى جهل كما كانوا

الزهاوى شاعر القومية العربية

الزهاوى «شاعر الحرية» ما فى ذلك شك ولا ريب . لقد عاش للحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة . . . كان كل شعره وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويفنى لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية الجيزة .

والزهاوى شاعر القومية العربية غير مدافع . . حمل لواها ودعا اليه منذ خمسين عاما وضع بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوى فى عصر عبد الحميد . . وعاداه . . وأرسل اليه قصيدة صائحا بدعوة الحرية فى وجه الرجل المستبد الذى كانت الناس تخشاه وتحمل فى سبيل صيغته كل أذى وسجن ونفى وإخراج . . ولكنه ظل مؤمنا بدعوته . . ومضى مواصلا ايها . . فاذا ضاقت به العراق عن أن يغفل فيها كلمة الحرية أرسلها بالبريد الى مصر لتتشر فى صحفها رمضاء مستغار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحرية هو أغلب شعره وأعمه ، وهو أصدق شعره وأشد أثره فى النفس
أبناء دجلة والفرات نيام
عن حقها وتسرها الاحلام

وإذا الحقائق لم نجد في أمه
 سنداً تقوم مقامها الأوهام
 إن العسراق به يعيش لشهوة
 شعب يسام الدل ثم يسام
 القوة حتى صار فيهم طابعا
 من طول ماصفتهم الأيام
 لو كلفوا مشيا على رأسهم
 لمشوا كان رؤوسهم أقدام
 فهو يدعو أهل العراق الامجاد في صيحة جسارة قوية إن
 مهبوا ولا تحتلوا الدل ولا ترضوا به .

لا ينبغي استقلاله شعب له لم يستعدا
 شعب إذا لم تستبد به حكومته استبداد
 شعب يلم بشره وإذا ألم فلا مردا
 شعب يظن الجدد هزلا كله والهزل جدا
 شعب يعرض للطام بكل يوم منه خندا

ولكن الشعب كان قوى الشكيمة لم يفقر للاستبداد ذله
 فنار ثورة حاميه حرقت على الدخيل الاخضر واليابس
 وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق
 كله .

عظيم على الافكار في عصرنا الحجر
 أما كل انسانه بأثرائه حمر

وهل فله الشعب المريد لنظائله
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريريه من اسساره
اذا لم يكن فى راسه حرر الفكر
واى رقى فى الحياة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون للافسواه كما يصفهم
وذاك لعمري ثم ذاك هو النكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
باكباده المحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره
أما بعد ليل الشرق محلولا فجر
ولا بد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو فى هذا يدعو إلى القومية العربية مؤمنا بها
وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل بأقيود
ودعا إلى الحرية فى قوة

عيسى بن الم على ياس بمملكة
وليس فيه لجرح سدا تضييد
حيث المنفيل بسعيد من تولفته
وعن مواطنه المحر تشريد

أحق يوطأ بلادهم مستحقاً .

وما هنالك يحمي الحق صنديد

نالت مطالبها الاقوام فاطبسة

ومطلب العرب المهضوم مردود

ولا بكل بلاد العرب من جذل

ولا بكل بلاد العرب مسمود

وهكذا يتكشف نزهاوي في كل شعره على انه ليس شاعر

الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربية لما يؤمن بها

العرب ويعملون لها .

وهو محب للوطن . صديق الحب . يثره هوانه و يواجه

حكامه بالنقد

أديك يوطن نسات بأرضه

وعرجت فيه يافع و غلام

باندل لا أرضى وان سددت به

روحي وأرضي بالخصام زواما

حي الذين اذا الهوان أصبهم

تخذوا الأبناء من الهوان عصما

يا قومنا لا نفع في أحلامكم

فخفوا الأبد من الهوان عصما

يا قومنا لا نفع في أحلامكم

فخفوا الحقائق وابذوا الاحلام

أي لا رباً ان أكون محبة

في الحادثات ولا أكون حياء

والله يريد الظالمون لنفسهم

بالظلم من شر يلم سسلا

ولست اعتقد أن أدب القوة يمكن أن يؤدي بأقوى مما آداه
الزهاوى فى قصائده الحماسية النسمارية لتي دعا فيها الى
لحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الأحلام والاهام
وهو داخ دائما وأبدا الى الابهاء من الهوان والى نبذ الرضعا
والتسليم والى قبول الحمام والموت دون الاوطان وحرقاتها
وكراماتها .

وهو فى أبان الحكم العثماني يقذف الدولة العثمانية بأسواط
لمتهبه من شعره يسق بها ظلمات الليل البهيم الذى يعيش فيه
العرب

وما هي الا دولة مستعبدة

تسوس بما يقضى هواها وتعمل

فترفع بالاعزاز من كون جاهلا

وتخفض بالاذلال من كان يعقل

الا انما بغداد قد أصبحت بهم

يهددها داء من الجهل معضل

وقد عبثت بالشعب اطماع ظالم

يحملة من جود ما يحميل

فتعسا لقوم فوضوا امر أنفسهم

الى ملك عن فعله ليس يسأل

فيا ملكا في ظلمه ظل مسرفا
فلا الامن موفور ولا هو يعادل
ولعلها أول صيحة في الشعر العربي لمواجهة ظلم عبدالحميد
يرتبط فيها الزموى بصاحبه الكواكبي صاحب كتاب مصارع
الاستبداد .

نحن في غفلة نيام وعنا
ثبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تدارتها الله
تبيع المحظور للحكام
وعدوها بالاصلاح جم ولكن
لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص
واحد أن نعيش كالانعام
ايها الظالم اغتصبت حقسوقا
قد حبساها الانام رب الانام
وما اظن أن السلطان عبد الحميد واجه من الهجوم مثل
ما واجهه به الزهاوي شاعر الحرية والقومية العربية
قد اسمعتك أنينها الاوطان
بضعيف صوت ملؤها الاشجان
ممت اليك يد الشكاة لانها
قد عاث فيها الظلم والعدوان
ادرك بها الضعفاء واستمجل فقد
عز النصير وقله الاعسوان

ان كنت تنصرها وتحمي حوصنها
 عن غاصب فلفسه اتى الابان
 ادرك بنصر امر قومك أنهم
 ظلموا فريع الشيب والشبان
 وهو ما يزال يحمل على الظلم حملات متعددة . . لا يتوقف
 ولا يتراجع . . وانما يمضى بفعله النصارى يعدد اثم الظلم
 وشره ويدعو الى العدل الذى هو الحرية
 خفف من الظلم ابفاء وتهوين
 فالظلم يفتلنا والعدل يحيينا
 يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا
 عائل برفق رعائك المساكين
 لهسوت عنا بما أوتيت من دعة
 فأبيض ليلك واسودت ليالينا
 ليست طريقك محمودا نغبتها
 فابداً اذا شئت فى الاحوال نحسين
 رعو من دعاة السلام . يكره الحرب وينهر عنها
 الحسب المتهورسين
 هى الطريق الازعسر
 الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشهر
 تضنى الذى هو ظافسر
 وتذل من لا يظفر
 فى الحرب لا تلقى من الفتية من لا يخسر
 فاذا أهل الدستور الجديدة عام ١٨٠٨ استقبله الزعوى

فرحاً به مغنيط موقوف حية جديدة للعرب وباب جديد للحرية

البوق أعدي لنا بشرى بها أمنت

أرواحنا بعد طول الخوف والرهب

بشرى كما تبتغي الآمال صادقة

أحبها الناس من قاصي ومغترب

صاحت لفرحة هذا العيد أفئدة

كانت تن من الآراء والذروب

صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها

ندعو على كربها بالويل والحرب

ويمضي الزهاوي داعياً الى اسحرية مؤمنا بها لا يخلت عن

الركب فاذا بدا العرب يتحررون من نير الشرك وحشي الشرك

يكيدون للعرب رجههم بالحقائق

وما فئة الاصلاح الا كباري

يعزل بالقطر الذي ليس ينزل

لهم اثر للجبور هي كل بلدة

يمثل في أفعالهم ما يمثل

اذا نزلوا أرضاً نقفم خطبها

كأنهم فيها المبالا الموكل

وتبلغ الزهاوي قمة ايمانه بالحرية في قصيدته الناعمة

يرثي بها من شفقهم أحمد جمال باشا السفاح الوالي التركي على

سوريا عن أحرار العرب

على كل عود صاحب وخليل

ونى كل بيت رنة وعويل

وفي كل عين عبرة مهـرقة
وفي كل قلب حسرة وغليـسـل
عـسـلاها وما غير الفتوة سلم
« شباب نسامي للعلـ وكهـول »
كان وجوه القوم فرق جذوعهم
يجوم سما، في الصـبـاح أقول
كان الجذوع القائمة منابر
علت خطباء عودهن تقـول
لقد ركبوا كوز المطايا يحـثـهم
الى الموت من وادى الحياة رحيل

أجالوا بهاتيك المشـبـانق نظرة
يلوح عندها اليأس حين تجـول
وبالناس ان حفوا بهم يخفرونهم
وقوفا وفي أيدي الوقوف نصـول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضـول
فمن سابق كيلا يقال محـاذـر
ومستعجل كيلا يقال كسـول
ولله ما كانوا يحسـون من أذى
اذ الارض تنسأ تحتهم وتزول
واذا قربوا منها واذ صعدوا بها
واذ مس هاتيك الرقاب حـبـول

وما هي إلا رجفـه نـعـرى القـتى
مفـجأة والرأس منه يـمـيل
مشوا فى سبيل الحق يحدوهم الردى
وللحق بين الصالحين سبيل
ستبكي على تلك الوجوه منـازل
وتبكي ربوع النـصلى وطلول
وأعظم بـخطب فيه للمجد شـقوة
وفى جسد العلياء منه نحول
سرت روحهم تطوى السماء لربها
وما غير ضوء الفرقدين دليـل
ولله عيدان من الليل أنـثرت رجـالا
عليهم هبة وقبول
هوت أهم ما ذا بهم يوم صـلبوا
على غير ذنب كى يقال دخـسول
سوى أنهم قد طالبوا لبلادهم
بأمر اليهم فخـره سـيؤول
ونادوا باصلاح يكون الى العـلى
وللنـجـح والعمران فيه وصـبول
فما رد عنهم بالشفاعة عصبة
ولا ذنب عنهم بالسـلـاح قبـيل

وهكذا يصل الزهاوى الى القمة فى إيمانه بالحرية ودفاعه
عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يفاوم
الانجليز في العرنق في كل مناسبة يحس فيها بأنهم يقف ومون
حرية الشعب أو يفصبون حقه الشرعى

تلفن معاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستفتى لها ويهدد
والشعب يطرى للجسالة خنجرا
فى صدره عما قريب يغمس
وكان يوم الفاصبين لحقهم
ليل وهذا الليل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيل مكبل
حتى يكاد اذا تحسرك يقعد
للبعض كسوخ واطىء وللبعضهم
صرح كما شيساء النعيم ممرد

والزهاوى بعد هذا كله بشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا فى
بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر انه كان
يعيش فى فتوة من أحلك الفترات التى كان يمر بها الشرق
حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الامة العربية
من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن
قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التى نراها اليوم . فهو
بالنسبة لجيله فى دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم
من جيله وقد رجعت حرارة ايمانه وصدق كفاحه بما أخذ
عليه رجحانا كبيرا

بغداد في شعر الزهاوي

أحب الزهاوي بغداد حبا قويا عميقا صادق لم يتغير ولم يتحول
وقد سجل في شعره في عدد المواضيع شغفه بالعراق وحبه له
ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا . وإنما كان حبا بصيرا
يحمل معنى الإيمان بالوطن . والدعوة الى تحريره وتخليصه
من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة .
وقد كان يكره بغداد أحيانا حين كان يحكمها المستبدون
من الأتراك :

كراهيتي لبغداد في شدة وازدياد
أبدل لي قربها بالبعد
كراهتها نفسي ومل فؤادي

وهو في هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهل والمسا
ويقول انه في كل يوم مصيبة تتحدد ومشكل يتولد
أين ذهن قد كان يشبه برقا
سرعة في فهم الأمور وخفقا
حرقته نار التوقد حرقا
انك اليوم لو تفتشى تلقى
حجرة منه في ركام الرماد

ذلك أن الزهراوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن
يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه
ثم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

سجن بفساد فى الحقيقة قبر

موحش فيه تدفن الاحياء

عجرات فى جوفها ظلمات

فهى فى الليل والنهار سواء

وقد ظل يحس بأنه دون قدره .. وانه لم يعط ما كان
خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

اننى اليـسوم فى بلادى أسير

ليت شمسى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفسية فكر فى الهجرة الى مصر

فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شـعرا

فيرى دون نشر ما قال عسرا

فيهادى به على البعد مصرا

حيث يلقى الشـعر المهلب نشر

ان مصر ريحانة الامـصار

تبلغ النفس عند مصر منساها

طيب الله بالسـلام ثراها

بلدم حبيب النجاح سقاها

يجد البحر مائتاً في ذراع
أنت يا مصر ملجأ الأحرار
كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوي
في الهجرة من بغداد إلى القاهرة . وخرج غاصبا ولكنه لم
يثبت أن عاد بعد قليل إلى بغداد .

وكنتم هيبت قبل سنين مصرا
فلم أصداً وفضلت الأياها
ذكرت مواطني وذكرت أهلي
وليلي والصباح والشمس
وقلت لقد نأت ببغداد عني
فليت الدهر يمشحني اقترابا
ولو أنني رجعت إلى بلادي
لقبليت المنازل والتراب
وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقا حتى أنه لا يلبث أن
يقول :

اني اذا احتاج العراق فبالحياة له أجد
ان لم اذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود
ثم يعتدل رأيه في العراقي بعد أن تتكشف غمة الحسك
العثماني ويبدأ الحكم الوطني بعد أن يلى الملك فيصل الحكم
في العراق :

قد ذقت صابا في حياتي بالعراق ، وذقت شهدا
ولقيت فيما قد لقيت بمواطني بخسا وسعدا
ورأيت بعد المد جزرا ثم بعد الجزر مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السياسية فى العسراف
مشاركة فعلية حتى لينسجل ديوانه جانباً كبيراً من صورته
الحياة . . صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبد الحميد
ثم كيف تكشفت السحب عند بدأ عهد الدستور فى الدولة
العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى
العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعراً فى استقبال فيصل وفى استقلال
العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وبارك
حكمه .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل
الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ . فقال : كان عدد
سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريباً
وحالتها الاجتماعية يومئذ منحلة ولا غساية لأكثر رجالها الا
التزلف الى الحكام الاتراك وولانهم ولا منافسة الا فى الرتب
والالقب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢ (وقت تحرير مذكراته)
٣٥٠ ألفاً وكانت العراق فى رداء غير ان الجهل كان يسود
أكثر أهلها ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس المدنية المنتشرة فى
أنحائها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان المقصود
شديداً .

وفى بعض شعراء الزهاوى يذكر العراق فيقول :

أنا والحق في العراق مضاعفان
 وما فيه غيرنا بمضاعف
 وإذا جرت البقايا شسقاء
 لمقيم فتلك شر البقاسع
 وقد صور الزهراوي بغداد في أكثر صورة جميلة رائعة
 مسجلة أنها هي التي أوجت إليه الشعر :
 هنالك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلوح في
 ليلاها النجوم فرادى وأزواجا واشتاتاً وركاما وأرض خضراء
 أديمها هي منبت جسدي وعقلي وأصحاب يوالون وأعداء يناوون
 وجهاد مستمر وآمال بيض وآس أسود .. وفساد في النظام
 وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس في حرة لا تقم على الضيم
 كل ذلك قد أنطقني شعرا هو شعور كان يحش في نفسي قبل
 أن أنطق به .

بين الزهاوى وخصومه

عاش الزهاوى حياته فى حرب متصلة بينه وبين خصومه
هو بعناده وجراته واندفاعه فى اعلان الراى الجرىء وخصوص
معارك الحرية ومهاجمة العسادات المألوفة يثير فى كل يوم
خصومة مع الحكام والولاة ورجال الدين والمحافظين . ولم
يكن الزهاوى يصبر على النقد أو يبتسم له أو يسخر منه .
وانما كان يواجهه فى غيظ وكراهية وألم . يبلغ به أحيا
حد البكاء . . وقد يدفعه الى التفكير فى الهجرة والخروج من
أرض الوطن .

وقد احتال لإعلان آرائه بكل وسيلة . . كان ينشر آرائه
وقصائده بتوقيع رمزى . . وكان ينشرها فى غير صحف
العراق . . ولكنه لم يكن يتنازل عن تصميمه وهو لم يعيش
يوما دون معارك أو خصومات مندفعاً فى حماسة وعاطفة
وعناد . . وقد سجل انه كابد فى حياته مزيداً من الشقاء
والاضطهاد . وأنه رأى عادات سيئة وفساد . . وأن نفسه
الحرّة دفعتة الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على إزالته . وقد
شغل الراى العام بآرائه الجديدة الجريئة فخلق خصومات
ناقده كانت تواليه بالتقريع والهجاء .

وقد صور الاستاذ ناصر العاني في محاضراته عن الزهاوى هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما في أمره ان اندفاعه المشهور وحماسه التي جاز خبرها حدود الرافدين . وقد اعترأها صمت طويل وصحب هذا صخب عليه . وتقول تضارب في وطنيته وقوميته . وقد عزز هذا القول . اسندته السلطة المحتلة من مناصب للزهاوى قد لا تكون أعلى منه مقاماً ولكن الظروف التي عهدتها اليه نابية جائرة فصسارت وبالا عليه . وظل في حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكش أعداؤه ومقنعاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به .

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطرب يخشى الناس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة . . . وكأنه أدرك فشله بالمشاركة بأقصى محنة عرفتها (١) بلاده . فحاول أن يعود بالتقاليد التي رزح فيها الناس والمشكلات الاجتماعية التي تحفهم فعمل على العقائد البالية . ودعا إلى التحرر الفكري . . . ومساواة المرأة بالرجل . ولم يكفر هذا سيئته عند الناس . فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليه النقد والتقريع . . . فقرر السفر إلى سورية بعد سنتين مضت على الثورة ولكنه لم يسافر إلى سوريا وسافر إلى مصر .

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل هذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد رحيله عائف
فقد طال في دار الهوان قعودي
وأفرح من ألى ومالى وموطني
وما كان لي من طارق وتلبس
ولم في عمري كبغداد منزلا
به العلم لا يجزي بغير جحود
رأيت بها بؤسا وشاهدت نعمة
فلم أسترخ من شجاعت وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوي أن يطيل مكثه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدفت الناس عنه قليلا فاستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .
والواقع أن الزهاوي كانت له مع أهل وطنه مواقف لعلها هي التي دفعتهم الى الحماسة عليه . ولعلها هي التي جعلته يسرف في الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .
ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوي للسلطان عبد الحميد أولا ثم حملته عليه . . وفي ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد سياسة
طريقتها في المعضلات هي المثل
ماذا على السلطان لو أجرى
الذي يشताقه الاحرار من اصلاح

سللت لنصر الدين سيف وعزمه
 قللت به ما لم يكن فيه سهلا
 فجهزت جيشا لنجساده عرمرما
 قهرت به ذاك العدو الذى ولى
 ومن هذه المواقف قصيدته فى مدح الانجليز والى جعل
 عذوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجئت الانجليز اولى احتشام
 ابناء الضيم حفاظ الزمام
 احب الانجليز واصطفاهم
 لمضى الاخساء من الانام

ولقد كن لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حياة
 الزهاوى فقد لحقه عارها طوال حياته وكانت كما قال الاسناد
 ناصر من اسباب حمله خصومه عليه وصجرتة .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث
 الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان
 ايمدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعرة فى أهميات
 الصحف المصرية . وقد ذهبنا فى حرب الانجليز والبوير
 جماعة من الترك الاحرار تمنى للانجليز العوز فى محاربتهم
 وذلك بقرار من الحزب المناوى لعبد الحميد . . يريدون بذلك
 أن يعصدهم الانجليز فى طلب الدستور . وكتب نظمته لهذه

١ - ديوان السليم المنظوم

٢ - الكاتب المهنى - ديسمبر ١٩٤٦

الغاية قصيدة أمدح فيها الانجليز وأشدو بقوة أسطولهم . وقد
نشرت في أول ديواني (الكلم المنظوم) وإلى الآن يميني ناقدني
على هذه القصيدة . ولكن هل كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث
حرب عالمية ويحتل العراق . هذا ما لم يخطر في بال أحد .
وهو دفاع ضعيف ولاشك . . . وأهل الزهاوى قد حاول بعد
ذلك أن يدفع بنصره في مجال الكفاح الوطني لينظم على هذه
القصيدة وهو أن كان قد رنى بعد ذلك أحرار سوريا الذين
شقهم أحمد جمال السفاح فأنه صور الثورة بصورة الوبال
على البلاد .

وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة
فلم يتناولها بيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه
قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها بيت من الشعر
ومما يسجله الزهاوى في هذا الصدد ويأخذه عليه خصومه
أنه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانية
بغداد . . . أرادت أن تأخذني إلى الهند أسيرا . ولكني أبرزت
ورقة فيها صراحة بأنني مكاتب جريدة المقطم فأفروا عني . .
وكانت هذه الجريدة موالية للانجليز .

وقد صور الزهاوى موقف خصومه منه في بعض شعره :

قالوا دخیل فی القریض فما أجاد ولا أجدا

قالوا صغیر لا یعد من الفحسول ولن یعدا

قالوا إلى الاحسان منه غیره فی الشمس ~~سحر~~ أهلی

وله جراء فیلسوف یوسع الادیان مجسدا

ویصور خصوماته دائما بأنها فی سبیل الفکر

وما آن لى الى الجهل ذنب
 فيفريهم بنفسي ان يكيـدوا
 سوى انى مخالفهم وانى
 لكل خرافة منهم جـود
 وقد توعدده قوم بالقتل لجراة رايه ولكنه لا يبالي بهم :
 توعدنى بالقتل قـوم وانما
 لكل امرئ فى الموت يوم وميقات

برئت من الصلياء ان كان لى بما توعد فى القوم اللثام بمبالاة
 وربما اراد الزهاوى أن يكفر عن هذه الاخطاء فقال فى مقدمة
 ديوانه الذى أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت الا من ظننت فيه
 خيرا للبلاد وربما خاب ظني فى بعضهم فكففت »

قد مدحت الذين لم يـسـتـحقوا مدائحي
 أحسـبـوها على ضرورتها من قبائحي

ومن المأخذ التى سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله
 قد يعلق بنهن الشاعر شطر من بيت سمحه لتقدم فيأتى
 بعد سنين فى تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك . وهو
 ناس أنه مقول . فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة . .
 كما يعتذر عن بعض شعره الذى وصف بأنه نظم رگيك
 أو سطحي المانى :

لا أعالى قربما قلت شـعـرا
 لم أكن فى قرضى له بالمجـيـد
 منه بكر بطرى ومنه عـسـوان
 لم يحز رتبة الكعباب المزيـد

قلته لاهيا في سبيل
 من هموم الهوى وروح الصدود
 يوم للخيد كنت أصيبوا ومن
 ذا ليس يصبوا الى الحندان القيد
 ثم أرهفته فكان سسلاحي
 ثم غنيته فكان شسليدي
 ثم صسيرته مجنا يقيني
 من فروق شر عبد الحمسيد

الزهاوى والموت

للموت فى شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد
الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يصود فيذكر
الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .
وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :
للمرأ فى الارض الفضاء مساكن
انى مضى والقبر آخر مسكن
والموت فوق جناادل وصيفائح
كالموت حم على فراش لين
قالوا وراء الموت أهوال ولم
أحفل بما قالوا ولم أتيقن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلة
للروح خالصة وراء الأذن
وكاننا صور الخيال لبرهة
تبدو وتحفى فى شمساع الاعين
قد سرت قبل للسورى متجلا
ولعلنى بك لاجئ ولعلنى
لا تسألونى عن مصير من انطوا
أنا بالعساو قب لميت بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحياة لها الصروح من المنى
والموت يهدم كل ما هي تبنتي
في الكون هذا كل شيء ممكن
الا البقاء فذاك ليس بممكن
لا بد من موت لمن هو عائش
فأشجع اذا قابلته أو فأجبن
ان الموت لرايض متحين
مماذا مراد الرايض المتحين

وهي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخرى .
وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة
عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط
مخمي عليه فحملوه الى داره فقال . . قلت لعل يومى قد اقترب
وهي آخر قصيدة قالها قبل موته :

قد أتى يا منيتى أن تصودى
بى الى حيث كنت قبل وجودى
ليس من هذا المسوت لأنفس بد
فهو للناس من تراث الجسدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعيا
ويا حساشه جودى
لا تخافى على الموت سهلا
لا كما يتعتونه بشهيد
لا تخافى ليس على الارض ولا في سماؤها بجديد

ولعل الصبيا يمر رخاء
 فوق ملحودتي فينعش عسودي
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور
 يزيل الظلام عن ملحودي
 يوم لا تبصر الربيع
 ولا تصفى لانظام الليل الفريد
 يوم لا تطلع النجوم علينا
 باسمات من السماء كخود
 يوم لا يسفر الصباح لنا
 من جانب السماء قائماً كمود
 يوم أيدى الردى تجردنى
 من كل طارف وتليسد
 سيقولون شاعر غاب فى اللحد
 وكم غاب مثله فى اللحد
 سبقتنى الى المقابر موتى
 أنا فى الراجلين غير وحيد
 بعد نومي على فسراش وثير
 عن قريب أنام فى أخدود
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور
 يزيل الظلام من ملحودي
 غير أنى ما أن سئمت حياتى
 وعبوطى وعادها وصعودي

ما بلفظنا من اللبانات يا نفسى
 سنوى النشور بعد جهد جهيد
 يممى يا نفسى السمسما فانى
 لا أرى فى الثرى طريق الخلود
 ان تلك السماء كالارض هذى
 حومة تلمى للكفاح الشديد
 لا يخيفك اللقواء بحرب
 هى بالشار تلتظى والحديد
 أنت حاربت للتححرر أعواما
 طوالا فحاربى من جديد
 أنت فى الارض ما نطاطات حتى
 تخضعى فى السماء أو تستفيدى
 انما أنت للتمرد لا للخسف
 فالرشف فى ثقال القيود

وفى هذه القصيدة يبدو الزهاوى وهو على أبواب الموت فى
 عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده فى سبيل
 التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بؤس السبعين لم يزل يحب
 الحياة ويرى أنه لم يقضى منها الا اللبانات اليسيرة بعد الجهد
 الجهد . وأنه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها فى حسرة
 بالغة ..

ويتصل بالموت شعره فى الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب
 طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرني المتبنى في لدري الأنمية فيقول (١) وكأنه يدك
نفسه :

ما أنت يا أحمد في دولة الادب
الا الزعيم والا شمس العرب
وما تنبأت في دين كما زعموا
بل في الفصاحة سياقا وفي الادب
فكان يوحى اليك الشعر عن شحط
وكنيت في قيادة الاداب أولهم
وكان يوحى اليك الشعر عن كسب
وكنيت أولهم في الجحافل اللجب
وكنيت في الشعر مثل الماء منطلقا
وكنيت في الحرب مثل النار في العطب
كم حكمة لك سارت في الوري مثلا
قد قلتها بلسان الشاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلب
لكن عرشك فيها غير منقلب

وقال في تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمي (٢) وهو من جيله
واحد من أربعة شعراء العراق الجواهري والكاظمي والرضاوي
والزهاوي :

صدق النعي ومات عبد المحسن
يا شعر أئمة ويا نفس أحزنى

١- الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥

٢- الرسالة ١٠ يونيو ١٩٣٥

يا شعر ومطهر قد كنتما
عمرا رفيقي غربة وثوطن
قد عشتما في كل منزلة معا
كالفسوق بين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أراني داريا
أشسفت بالنسرين أم بالثنوشين
حتى احتوته يد المشايخ بقة
بمخالب معشوقة كالحجين
لمن الزعامة في القريض ومن لها
بعد الحفي الشاعر المتفنن
ملأت قصائده القلوب حاسة
من بعد ما شسخت جميع الألسن
شعر يكاد يسيل منه لفظه
مثل النكتي من رقة فيهنني

عقيدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه .. والدعوى المنطلقة فى كل مكان .. كن الناس يقولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . ولا بالبعث والنشور . وهو اتهم يوجه الى كل شاعر مجدد . وكل مفكر جريء وكل مصلح سبق زمنه .. او اديب اراد ان يهز حياة قومه الجامدة .. وما من كاتب أو مفكر أو شاعر لمع اسمه وتآلف الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام .

فهل الزهاوى حقاً ملحد . وما هى عقيدته .. لندع شعره فى مختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة .

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو أول دواوينه يقص القصص على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الذى بالزعم يذكر الناس
إذا ما رديننا لم نعد مرة أخرى
فينكر بعد الموت عود حياتنا
وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فلو لم تكن دار يجازى بها الفتى
تساوى إذا من بفعلي الخمر والشر

ويرد هو في نفس القصيدة فيقول :

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا
يسوء اعتقاد لي الى الكفر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة
حنانك اللهم يا خالق غفرا
لقد تبنت عما كنت معتقدا له
فان لم تنب ربي على فواخسرا
شهدت بأن الله ربي واحد
تنزه عن عيب يشمين له قدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يميني فانحرفت الى اليسر

وفي هذا اعتراف صريح من الزهاوي بأنه انحرف في رأيه
ثم عاد فاعتدل مرة أخرى . وفي عباراته معنى التوبة والرجوع
الى الحق الذي اعتقده بعد أن عرفه . وما على الزهاوي من
بأس في هذا ولا ضير :

ويقول في قصيدة : احساساتي

لست أدري اللغناء ستمضي
بعد ما نبوت أم للخلد سود
انني في شك وان ملأوا سمعي
بوعسدي يروونه ووعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما
ان رأى الجمهور غير سديد

تاكل الارض كل حى فلا تبسقى
 على والد ولا مولود
 امم كلها بيد فتانى
 امم اخرى بعدها لليهود
 سوف يقفوا ركب الى الموت ركبا
 ثم لا أشهدو خلفه بنشيدى
 وفى هذه القصيدة يعود الزهوى الى الشك فى الحياة بعد
 الموت ولكنه لا يثبت أن يقول فى نهايتها :
 كلنا مؤمن يسبح للرحمن
 فى ظل عرشه المبرك
 اننى ما سجدت يوما لغير الله
 فالله وحده معبودى
 وفى هذه الصراحة قوة وصفاء ووضوح :
 وهو فى أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه هائلا
 لا اتهام (١)

ما حياة قديمها غير باد
 لك الا تطور فى الجماد
 ولقد بهلك الذى يتوقى
 وقد لا يعيش أهل الحيا
 أى ذنب لى أن تباعدت
 الشقة بين اعتقادهم واعتقادى

١- قصيدة تطور فى الجماد - الرسالة ٦٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجماعة في الوا
ي جرى رموه بالاحساد

وفي قصيدته الضخمة : نورة في الجحيم . . يعاود تصوير
إيمانه فيقول :

كان إيماني في شبابي جم ما به نوره ولا نقصير
غير أن الشكوك هبت فلاحيني فلم يستقر بي الشعور
ثم عاد الايمان يقوى الى أن سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم انهدت حتى قيل هذا مذنب مغرور
ثم دافعت عنه بعد يقين من ما يفعل الكمي الجسور
وتعمقت في العقائد قبل هذا علامة غرور

ثم اني في الوقت هذا نخوفي
لست أدري ما ذا اعتقادي الاخير

وتعطي هذه الابيات صورة الزهاوى وهو بين الايمان
والاحقاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث
لا بالوراثة والتقليد وهو يقول في شأن عقيدة المقلد وعقيدة
البصير الباحث :

أمن اكتفى بخرافة فهو مؤمن
ومن امتري فيها من الكفار

ولدى النهاية جاهل في جنة
فيها النعيم وعالم في النار
ولم يدع الزهاوي خصومه ينطلقون في اتهامهم له فصرخ
فيهم صرخة عارمة :

يا قسوم مهلا . مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله في تكفيرى

حكمة الزهاوى

قال نقاد الزهاوى أنه أشبه بالمعري من ناحية والشمسية بالمتنبى من ناحية أخرى وأرادوا بذلك أنه يمثل المعري فى قصائده الجريئة وآرائه فى الحياة والموت وما بعد الموت وحرابه على خرافات الدين وأوهام العامة . . . وأنه أشبه بالمتنبى فى اعتقاده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمته المنشورة فى طوايا قصائده .

والحق أن الزهاوى كان فيلسوفاً وأنه كان يتعرض لقضايا الحياة فى قوة وجراءة حتى يمكن أن يطلق على أدبه ذلك أدب القوة .

يقول :

ليس الحياة سوى نزاع دائم
يا للضعيف به من الجبار
يا شبيب لستم للروغى فتأخروا
وبدار يا شبان ثم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تحتالون فى الاطمئان
وتحرروا من نير كل خرافة
خرقاء تلقى الزيف فى الافكار

وتحرروا من قيد كل عبيدة
سوداء ما فيها هنى للمسارى
ويصور الحياة والموت فى صورة رائعة :
لقيد راعى رزايا توالى
والبرزايا اذ توالى تروع
ورأيت الايام تاكل من أعمارنا
فى الحياة وهى تجوع
وكان الارض التى هى وارت
كل هنى القبور قبر وسيع
وكان السهم قبة دير
وكان النجوم فيها شموع
كلما شاعلت المقابر حولى
أخذتنى مهابة وخشوع
ليس للقادمين منا بقاء
ليس للذاهبين منا رجوع
ومع هلال محرم يمشو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية
والكرامة :

ومن لى بعام لا يشمابه غيره
أرى فيه اطفال البغاة تقلم
وأبخل أرض بالرجولة يقمه
يضام الفضى فيها ولا يتيرم

ادير عيولي في الوجوه فلا ارى
 تنوى الدل مكرروا ولا انوسم
 ليحزننى ان القنادل انرت
 صحتوا وان الزمهر لا يبتسم
 بنى وطى لا تستكتوا عن حقوقكم
 اليس لكم منكم فم ينكمم
 لكم ثروة في الارض القا بها لكم
 وارباها للفرب نهب مقسم
 لا فخر الا للذى هو ماجد
 ولا مجد الا للذى يتكلم
 وما الحمر الا من اذا هيم لم يطن
 وان قال حقا فهو لا يتكلم
 وما بال ابناء العووبة اصبحتم
 على الدل اشتاتا نشب وتهرم
 وما بال ابناء العووبة سلبت
 وقد كان عهدى انهما لا تسلم
 لالام قومي الضميد نفس تالت
 لك الويل يانفس التي تسالم
 وهو معب للحياة مهنا علت به السن يدعو الناس الى
 المتاع (١) هنا :

يا نفسي ياتنخدعنى بالزاهد المنقطع
 دنياك هذى تحتسوى على النعيم أجمع
 تنعمى بخسيرها قبل دنو المصراع
 وبالحياسة ما صفت تمنى تمنى
 لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعى
 وانتهزى القرصة قبل فوتها واسرعى
 بالنسمات تبغين السؤال لا بالادمع
 وهو اشتراكى يدعو الى المساواة

لا يعرف المؤلم فى الحياة الا المؤلم
 ألف يعيش بأثسا وواحد منهم

ثم يعاود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاها
 اشبعوا غيرهم وباتوا جوعا
 ربيع المالكون الارض عضضا
 ومضى كد الزارعين ضعا
 يقفر الدهر ألف بيت ليثى
 واحدا من أفراد جمعا
 لا ترى بين أو ليهم ثريسا
 كانزا للاموال أو منسا
 ومن العدل يكون نتاج الارض
 بين المستثمرين مقسما

ان يبين الحق المحصن والباطل
منذ الدهر القديم نزاعا
ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابي العلاء وهو يقول
مخاطبا اياه فى قصيدة له من ديوان الاوشال :

وانى اكبر شئ فيك يعجبني
سخرية من تقاليد وعصيان
أنكروا فيك الحسادا وزندقة
وعلى ما أنكروه فيك بهتان
اننى تتلمذت فى بيتى عليك وان
أبليت عظامك أزمان وأزمان
أصابنى فى زمانى ما أصابك من
حيف فما رد هذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعرى فى تشابه
حياتهما وما لقياء من الجماهير
وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للسماء الا رفع
ورقاد كانت فيك ذات تخضع
قد كان مسكنها بجسمك ضيقا
واليوم تسبح فى مكان أوسع
الله أربنا اليك وبعد أن
مكثت قليلا فيك قال لها ارجعى

وان كان لم ينم هذه القصيدة وقال : حال دون امامها مانع .

خدعوها بقولهم حسنا
شعرها الليل والجبين ذكاء
غرها ذلك النساء فلانت
والغواني يغرن النساء

ومن شعره الحكمي قوله :

ما اكبر الاخلاق في نفسي امرى
ان خاشعته الناس لم يخشوشن

وفوله :

ما قلت شيئا بغمي
الا وعقبي نهى
انا ابن عقلي وحده
تنبئني عني كلمي
به اهتديت في شـبابي
مثلما في هـرمي
ربما كانت أمـور
انا عنـهن عمي

دموع الزهاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة .. فقد عرف بأنه صاحب
دمعة .. وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه . ولطالما ردد فى
شعره قصة الدمع .. غير انه عاد فى آخر أيامه . فدعا الدمع
الى أن يقر فى الميون .. ويرجع على الاعقاب :
يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الأياد مع انك ترجمانى
فبين للأحبة ما أعسانى
اليهم فى فى فؤادى بعض تسكو
ى لسانك فيك أفصح من لسانى
ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
اليس ثعر الدم فى وجه الحزين يبسم
ويقول الأستاذ ناصر الحائى فى محاضراته عن الزهاوى :
« عرف ان دموعه طيبة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار . ويبكى
اذا ابتهج وسر . وعرف عنه بعض مناوئيه ومفيظيه هذا ..
فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليه حيناً ..
وما يفيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحياناً . وظل يعيش فى

عالم خاص به - لاسيما في شيخوخته - ويرى أن قسومه لم
ينصفوه ٠٠ »

وهو في قصيدة : دمعتي يكاد يصور هذه الحقائق كلها :

أنت أما أن تخففين مصيبي
دمعتي فأرجعي على الاعقاب
أنت لا تدرئين عني دائي
أنت لا تصلحين منه خسرابي
أنت لا تجدينني في شسقائي
أنت لا تنقذينني من عذابي
أنت لا تدفين وطاة شيبتي
أنت لا ترجمين عهد شبابي
أنت لا تقدرين أن تهينني
راحة أو تسكني أعصابي
أما أنت قطره مستبيلين
إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيئين بين لحيتي البيضاء
أو تنيضين فسوق الشراب
أرجعي فالحياة ليست تساوي
أن تخزي من حلق كالشهاب
لا تخزي وإن قضى أن تخزي
سبب قاهر من الامسهاب

ان نفسي لا ترضى ان بهسونى
 كشجونى وان ملان أهسابى
 يا ابنسة الهم ان غرفتك القلب
 فلا تخرجى الى الابواب
 انا لم أسأل الغيـون بكاء
 لتكونى على السؤال جوابى
 واذا ما هبطت بالرغم منى
 طال يادى على عليك عتسابى
 انا ان بكيت أبكى بشعرى
 ولقد أهديه الى الاحباب
 كل بيت منه اذا عـرود
 دمعـة تـرـة على الاداب
 بين شعرى وما يجيش بصدرى
 من شعور وشائج الانساب
 انا عنه محدث وهو عنى
 وكلانا فى القبول غير محاب

ويقول فى رسائله ان آلامى المعنوية اكبر من آلامى المادية .
 فانى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس . وكلما
 انخدع بالباطل تمزق قلبى من الـاسى . . . وكلما خضع للظلم
 شرفت بدمى .

الشعر المرسل

دعا الزهوى الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انه جزء من دعوته الى حرية التعبير والقصيد . وقد نشر في هلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام » وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذي استحدثته في الشعر العربي مطلقا اياه من قيد القوافي . ذلك القيد الثقيل الذي تبرم به الشاعر وحبسته الالف الى السمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضي الذي بقي دهرًا يشل الشعر في مجموعه . . فلا يمنحه حرية لايراد القصص وبث الآراء والوصف كما ينبغي . ولا يدلّه في الموسيقى التي تجعل الشعر الا وهي الوزن . . وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارئ عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه في القافية . .

ما أغنى أرجل غواني الشعر عن خلاخيل القافية . . وأغنى السمع عن سماع وسوستها التي تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربي أن قيد القافية فيه أثقل منه في الشعر العربي . . بطيء التطور بحسب الحاجات العصرية التي لا يشبعها ذلك القديم الضيق واني لا أريد اليوم رفع القافية من كل أقسام الشعر فذلك عسير على الأذواق التي ألفتها منذ

مصور طويلة وأحقاب بعيدة . . ولكن أي بأس في أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيّد . وإن يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغي أن يسير على صوت عوسيفي الوزن حرا طليقا في مجال واسع لا يرسف في قيوده مثقلا .

وقد نشرت لي المؤيد في مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لي جريدة في العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قصيدته المذهظين على القديم . وكان لي يومئذ انصمامار كما كان لي خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات أثبت فيها أنهم كانوا على باطل . .

والواقع أن الزهاوي حاول أن يكسب انصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك إلى النظم والقافية بعد أن تبين أنه لا يرضى إلا القليل . ولعل هذا النموذج الذي نوردّه من قصيدة «بعد الف عام» يبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشقى جماهير
يمشون أحرارا فليس مسيطرا عليهم سوى العنجل
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة

فلم يبق عنهم من نواميسها خافي
وقد عرفوا عقو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير والجهو واسع
 وأما أرادوا المكث فالارض مبهمة
 يرى بعضهم بعضا ويسمع صوته
 وبينهما الارض القصوية تفصل
 ويقرا كل منهم فكر غيره
 قد يرا فلا تخفى عليه السرائر
 وقد كان الزهاوى في هذا يقول فيرون وغيرهم
 من المتنبئين .

بين الزهاوى والرسافى

عاصر الزهاوى ثلاثة شعراء فى العراق : الرسافى والكاظمى والجواهري . . ولكنه ارتبط فى ذهن الكثيرين بالرسافى . ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كفرنسى رهان فى ميدان واحد : وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .
والواقع أن الزهاوى ولد سنة ١٦٨٣ توفى عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرسافى ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوى باثني عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوى قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرسافى بالنسبة له كهسارون الى موسى وقدم نفسه كعادته

وانى بمعسوف لاأعتر انه
أخو ثقة والحسر يعتز بالحسر
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وانى واياه الى غاية نجرى
فخذ بيدى اللهم فى كل دعسوة
وهذا أخى معروف فأشديده به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسائله (يناير ١٩٤٧) مجلة
الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بينى وبين الاستاذ الرصافى
فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .
ومضى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما . ولمست

اعترف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى
أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هناك فارقا
وخلافا شديدين بين عنهم كل من الشعاعين ومذهبهما فى
الشعر والحياة . ولعل الزيات حين وصف الزهاوى بأنه كان
قريب من الممرى وأن الرصافى كان قريباً من أبى نواس كان
يحكى الحقيقة . . فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عارية
جريئة كلها متع وخمر وجراة على التقاليد . . بينما لم يفعل
ذلك الزهاوى الذى كان مريضاً . . وكان حريصاً على الاحتفاظ
بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صورة
الدعاة وأصحاب الرسالات .

ومما قاله الزيات أن الرصافى (١) تميز بالصراحة الجريئة
والاستهتار البالغ . وأنه هو نواس العسراق فى حين كان
أستاذة الالوسى يريد أن يخلف معروف الكرخى الصمصوصى
المعروف . ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى أنه لم يجد
ما كان يطمح فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعاه الى أن يعلن
الخصومة على الملك ووزرائه

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يضمحه النقاد بين
 الاوتار الخمسة للشعر العربي الزهاوي والرصافي وشوقي
 وحافظ ومطران (١) وكان الدكتور طه حسين قد مضى بأمانة
 الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقي (١٩٣٢) وقد علق
 الزيات على هذا بأن الزهاوي يفضل أن يكون في ساحة المجهدين
 على أن يكون في طليعة المجددين .
 وقيل إن الفرق بين الزهاوي والرصافي أن الزهاوي
 أدبته عالم والرصافي فنان أديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاستاذ الزيات أن الزهاوى كان يحضر فى آخر أيامه ندوة السيد صبحى الدفتري محفظ بعزاز فى داره ضفى الجمعة من كل أسبوع يحضرها الزرراء والزعماء والادباء والقادة .. فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .. ولكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه الندوة لان جميلا كان آية الله فى فكاة الطبع وظروف المحاضرة وحلاوة الدعاة ورقة العبث . وكان له فى لقاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار القلب نسوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع .

ولعل أبلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاؤم والتملن ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقيه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرضى .. وكانت الحيوية تقبض من كلمته .. والعزيمة تصطرم فى نظراته . وهو كتلة من الاعصاب القوية المشدودة (١)

١ - وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ - الزيات - الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوى يهزج بأغساريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى أوصل القلوب العربية فى مجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الزروة .
وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره . . وعلى احياء الادب بوميض روحه .

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى . . فكان صدره يعنى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له فى الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه .
وانه كان فى أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة فى بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريدوه ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرمون على معارضته .

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه فى الشعر العربى العصرى . وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالماني ترجمة حياته . وترجم قصيدة ثورة فى الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وأبحاث .

وجملة قول نقاده ومؤرخيه : أنه حصل لواء التجديد في
 الشعر العربي ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والافكار .
 وتحمل في سبيل ذلك كل اذى فقد كانت بيئة العراق جمود
 وظلام وقد غمرتها الامية وطغى عليها الجهل . (١) وقد ألف
 الناس الخضوع لجبروت الحكم والخضوع لبالي العادات .
 وما أضغاث المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم .
 وكان أي واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر
 أو يتحدث عن شيء مما ابتكره الغرب حتى يرمى بالبدعة
 والمروق في الدين .

وقد نقد الاستاذ سليم طه زباعياته . . وقال انها ركيكة
 المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة
 التعبير الى جانب السبك في النظم وحسن اختيار الكلمات .
 ومن جماع ما يقال أن القلق كان أبرز معالم شخصيته .
 وان ارتفاع السن والحياة الطويلة أعطته شيئا من القداسة .
 وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الأربعين . وانه لم ينظم
 شعرا في الثورة العراقية وان والدته هي التي أورثته الصلابة
 ولعناده . وانه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .
 وانه تأثر بأحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيساته
 شاكيا ضجرا قلقا . وكان التشاؤم والتعطيب والضيق
 والشكوى من أبرز مظاهر حياته . . وقيل ان غلله وأمراضه
 التي لازمته طوال حياته لها أثرها في اتجاهاته وكانت مصدر

١ - من مقال في مجلة يونيه ١٩٤٩

فلقه وجزعه واكتسابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا . ولا يستطيع أن يطوى صدره على الاوهام الخاصة . . وكان يحس بأنه دون قدره وان لم يعط ما كان خليقا به .

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش في مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب . . وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه . وقد عرف « بيلي » فقد كانت (١) حلمه الذي صبا اليه وأمانيه التي حظ عندها رجاله فهي في في الحقيقة وطنه العراق وهي فتاة أحبها أيام كان في الاستانة .

وقد أطلق روفائيل بطى على الزهاوى اسم « فيلسوف بغداد في القرن العشرين » وانه لم يحس في حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء .

وقال نقاده : ان شدة حقه على المجتمع يرجع الى علة لازمتها طوال حياته . والمرء شديد الانفعال في مثل هذه الاحوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حـالة ان غيره ممن ليس أجدر منه بنعم الحياة يتمتع بما لذ وطاب ويسير في الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفة الاجتماعية وقد أدركته علة في النخاع الشوكي وهو في منتصف العقد الثالث من عمره

فتبعتها علل أخرى لم يكن الشلل إلا بعضها . لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقتة خادمه الأمين . . فإذا ترجل توكا عليه حتى يصل الى مجلسه .

وكان الزهاوى يميل الى البساطة فى كل شىء ويتجنب كل كل ما يشق عن العظمة والعطرسه وكان بيته رمزا على بساطه عيشه . وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة .

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعيبا بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح فى طرفة عين . ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء .

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وأدبها وفنها وتمثيلها وغنائها .

ويقول اسماعيل أدهم فى دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلى شميل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول فى نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعايتها فى كتاب بعنوان : الفجر الصادق فى الرد على منكرى الكرامات والخوارق .

وان رأيه فى المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل في الاستعداد الطبيعي الا انها تقرب من
استعداد الرجل .

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوى اتجاهه
العقلى فى الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفى وانه حمل
الشعر رسالة العلم . وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة
على النظم . وكان فى احساسه الشعور بسبق الزمن .

الادب العراقي في عصره

كان العراق في العصر السابق لاعلان الدستور العثماني . . يعيش في جو مظلم حانق من دسائس السلطان عبد الحميد . لم يكن هناك من يجروا على كلمات الحرية والاستقلال وفي خلال هذا العهد هاجر جميع احرار الفكر الى مصر وتركوا البلاد التي تحكمها تركيا العثمانية . . واكتفى الزهاوي بأن ينظم نثبات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصرية مهاجما عهد عبد الحميد ومطالبيا بالحرية والسفور . فلما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك في العراق بالفرح الشديد والتهليل أملا في الفرص التي سيتيحها الدستور للناس في حرية القول والرأى والنشر . وكان الزهاوي في مقدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير .

وبدا الادب العراقي يدخل في دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة . كان قوامها مدرسة الالوسي في بغداد وعميدها محمود شكرى الالوسي . ومفتدى الشيخ أمين غالى في البصرة ومكتبه دير الادباء الكرملين ببغداد .

كما حافظت النجف على استقلالها الادبي وتراثها الروحي فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف وأساتذة ممتازون في المنقول والمقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)
وقد أقامت الطبقات الادبية التي ظهرت في هذا العصر ادبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائي والفحام والنحوي والاعيسم . ومن شعراء الحلة جمهور الحلي ومحسن الخضري وسعيد الحبوبى .

وقل في هذا العصر المدح فى الشعر وكثر الوصف . واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع فى قصائدهم بدلا من تعدد المواضيع . وشاع الشعر السياسى والاجتماعى . ولم تنس العراق ادبها التقليدى الرائع : الادب العسلى الحسينى الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد . . ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاسلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة فى العراق أثره الواضح فى الفصائد والملاحم الجديدة التى تحدثت عن التضحية والبطولة .

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيدة تحدث عنها القاصى والدانى سنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية . . انتهت معها معالم الاستبداد العثمانى وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة . وبدأت مرحلة

١ محمد رضا الشيبينى : بحث فى المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر

سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطاني وارساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذي كان على رأسه فيصل ومن بعده غازي وفي خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوي والرصافي والجواهري والكاظمي أبرز شعراء الفترة .

وقد كانت مظاهر الادب العراقي كما صورده الاستاذ الشبيبي جزالة عربية في الالفاظ ومحاكاة للقدماء وجمود على القنون الشعري المألوفة حتى جاء الزهاوي والرصافي فجلبا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فاتجه الادب العراقي الى الواقعية وكان هذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفة في الحكم وحلت بدلا منها أخرى استتبع تغيرا في أساليب الفكر والنظم والكتابة .

وقد كان شعر الزهاوي والرصافي والكاظمي على الاختلاف البعيد في اتجاهاتهم واساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش في نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسى . ومن ناحية اللفظ يتجلى في الشعر العراقي رصانة في مبناءه وصفاء ديباجة وبيان مشرق . . ولعل شعرا في العالم العربي لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتعامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقي .

يقول الدكتور زكي مبارك أن الادب العراقي الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسي . . والادب التركي والادب المصري هذا بالإضافة الى الادب العربي القديم .

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران
للاشتراك فى احياء ذكرى الفردوس .

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى
والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى
الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الجوبى .

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم
صورا كثيرة من الشام ومصر .

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر . والاخوانيات من
ابرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد
وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان . . فريق يترسم
خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجسرى على سنتهم
المعروف فى المذاهب والاساليب مع شئ من التجديد : أحمد
الضافى والحيوبى واليعقوبى والجواهرى والمقلد والخطيب
والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق
الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى مجازاة الغربيين ويحاول
أن يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل .

وللادب العراقى الحديث فى مراحل فترات من اظهرها
جنوحه الى التشاؤم والشكوى . ووصف مظاهر البؤس
والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزاته نزوع ظاهر الى
العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة
المحكومة .

وفى ميدان النشر طائفة من الباحثين والعلماء المنقطعين

للدراستات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات
وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثرى ومصطفى جواد وعباس
غزاوى وجواد على وأحمد سوسة وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم فى سبيل الحركة
الوطنية العراقية وكان لكتابها جهاد ملحوظ ويقول زكى
مبارك أن المقالة القاسية فى جريدة عراقية . . . فهى تزلزل
احساس الجمهور أعنف الزلزال . . . وقد أغلقت جريدة عراقية
لأنها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لأنها تناست الفرق بين
الهياج والظنيان . . . فالهياج يضاف الى السكان أما الظنيان
فيضاف الى الماء . . .

وهكذا يبدو الزهاوى بعيد الاثر فى أدب العراق . . . اشترك
فيه أكثر من خمسين عاما فى ثلاث عهود . . . قبل الدستور
وبعده وفى عهد الاستقلال والوطنية . . . وناصح عن العراق والعرب
والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة . . . وهز قوائم المجتمع
الغربي بدعوته الحرة وجرائه الخالصة واندفاعاته المتحررة فى
تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعنسية باللفظ . . .
وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام فى ميدان السياسة
والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد . . .

وقد واجه المحافظون الزهاوى بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه
ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوى مظهرا واضحا من مظاهر
الادب العراقى وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره . . . فقد كتب
للادب العراقى صليحة مشرقة ومثل فى الادب العربى المعاصر

زاوية حية .

وحق ما قال الزهاوى أنه سيأتى اليوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفى العراق اليوم تلاميذ الزهاوى وشباب العراق الذين غنى لهم الزهاوى سنوات وسنوات يسировن على نهجه ويؤمنون به .

واليوم وقد مضى على موت الزهاوى بضعة وعشرين سنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوى كان علما من أعلام الحرية فى تاريخه وأنه دفع العراق الى الامام بقوة . . وأن مناته هى منات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنسبة للزمن الذى عاش فيه وما كان فيه من ظلام واستبداد . وبالنسبة لحياته الطويلة المديدة . .

واليوم نرى الزهاوى وهو يعثل ركنا قويا من أركان الادب العربى المعاصر وجانبا هاما من جوانبه بالاضافة الى زملائه واترابه شسوقى وحافظ ومطران والرصافى والكاظمى . واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى أعددت بحثا عن الزهاوى سنة ١٩٣٩ وأنا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلت فى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب سحر كلمة على روحى فيردنى عن الحياة الى أجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنان السماء .

وفى سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراسات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منها ما قد يكون مكملًا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوى سابقًا لعصره متهما بين أهل جيله وبدسه بالزندقة والجنون والالحاد . وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسة الرائعة خاصة بعد ان تخطت العراق مرحلة الانتقال . وقد اضطر في ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المرأة متصل الى حد كبير باثر المرأة في حياته وفنه وقد أثرت عنه في ابدن اقامته في استانبول مغامرات وضميمة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق . ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يالف العشق الطويل المدى . ويبدو أن الزهاوى في الحب أشبه بشوقي فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجسد عنده تلك الحرارة الدافقة في العاطفة

ولعله وجد في مصر أيضا سبيلا الى عاطفة أو حب . وهو في كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم . . اذ أنه لم يستجب لذلك في حياته الخاصة . فقد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجبة . وقد وصفت هذه الحياة بأنها كانت هادئة مرضية لنفسه . وقد تزوج الزهاوى

فى سن مبكرة . وامكن ان تهين له زوجه اسسباب الراحة
والنفسية على ما به من شذوذ . . اذ كانت خير معز لى فى المحن
الفكرية والسياسية التى تعرضت لها . . وفى خلال سنوات
مرضه باعصابه فقد كانت تعنى به عناية الام بطفلها وتهتم
بهندامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه ابان سفره الى مصر
وسوريا . ومن أبرز معالم حياة الزهاوى الخاصة انه لم يوزق
أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسى .

وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس بشاعر وقال عنه
النقاد يوسف جورج : انه ليس شاعرا . اذ أن الشاعر يعتمد
على العاطفة والخيال قبل العقل . والزهاوى كان لا ييسالى
المواطف والخيال أبدا .

وبعد فالزهاوى قوة أدبية كبيرة فى تاريخ العراق الذى أحبه
وفى تاريخ الادب العربى المعاصر . . وهو علم من أعلام الفكر
والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضحا هو
الحرية الفكرية والتجديد والدعوة الى الإصلاح الاجتماعى . .
رحمه الله .

أنور الجندى

الشركة العامة للبترول

١٤ شارع سليمان باشا القاهرة

تعلن الشركة عن مناقصة عامة لعمليات نقل مهمات
ومعدات - لمدة عام - ويمكن الحصول على دفتر
الاشتراطات من إدارة العمليات بالشركة نظير دفع رسم
قدره ٢ جنيه - اثنين جنيه تقبل العطاءات حتى ظهر يوم
الاثنين ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٠ م

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور - القاهرة
ص.ب ٢٣٩٨
